د. حسين السيد

رواية

عهود الدم

عهود الدم

رواية

حسين السيد

١

لم افهم يوما كنه ذلك العناد الذي يميز العجائز. ولم أعي أبدا سر ارتباطهم العجيب ببيئتهم التي نشأوا بها أو عاشوا فيها. ولم يكن أبي شذوذا عن تلك القاعدة. كان عنيدا في قراراته التي يتخذها، صلبا في تنفيذها كالصخر، وكذلك كان مرتبطا ببيته الريفي كأنما روحه معلقة بين جدرانه وجنابته. وكان هذا سر معاناتي معه في عامه الأخير.

أعيش في القاهرة ويحيا أبي في بيت ريفي ضخم في أحدي قري محافظة المنيا، تقاطعت سبلنا وقد عزفت حياة الريف الرتيبة واشتهيت حياة المدينة الصاخبة الحية، وآثر هو حياة الريف الهادئة الراكدة في بيته الذي ورثه عن أجداد أجداده. ظل طوال الوقت يلح علي أن أعود بأطفالي للبيت للحياة فيه متوعدا حينا، ومتوسلا أحيانا أخرى، وظللت على إصراري ألا أعود. لقد اخترت من قبل ولن أعود لذلك البيت ثانية إلا لزيارة أبي والاطمئنان عليه.

تتباعد المسافات والزيارات بيننا، ويزداد الجفاء والغضب بجوف أبي وهو يرى ابنه الوحيد شقي عاق يأبى الرضوخ لرغبة أبيه. وأرى أن من حقي وقد كبرت وتزوجت أن أختار طريقي بإرادتي الحرة بعيدا عن تحكمات أبي ورغباته. في النهاية هي حياتي ومن حقي أن أحياها كما أشاء. لكنني حافظت على وصاله. أتصل به في كل يوم مرتان وأزوره مع أبنائي كل شهر مرة.

وظل الحال هكذا حتى عام قبل الآن..

وكان ذلك حين أصيب أبي بالشلل..

حاولت في ذلك اليوم أن أتصل به لأطمئن عليه لكنه لم يرد.. ظل هاتفه يرن بلا إجابة طوال الوقت، وفي النهاية وقد بلغ القلق منِّي مبلغه، لم يكن أمامي إلا أن أستقلّ أول قطار لأذهب لأطمئن عليه..

بلغت المنيا، وقد حل الظلام على رصيف المحطة، ووصلت البيت وآذان العشاء يرتفع من المآذن المحيطة به.

دلفت البيت فرأيت ما هالني.. كان أبي يرقد على وجهه فوق أرض الصالة الخشبية بعجزٍ ويأسٍ، في انتظار موتٍ بطيء، بعد أن فقدَ الأمل في أن تدركه نجدة ما.

وعلمت منه بعد حين ما حدث له.

في البداية كانت هناك تلك الصاعقة الكهربائية العنيفة التي اجتاحت عقله واعتصرته فجأةً، فسقط بغتة دون أن يدري بنفسه مغشيًا عليه.. كان يسير حينها في صالة البيت، وقد فرغ من جمع بعض أوراق النعناع من الحديقة ليجففها ويحفظها.. وحين أفاق بعدها كان شقه الأيمن بأكمله قد سُلِبَ منه للأبد، وداهمه الشلل..

حاول أن ينهض فلم يقدر.. حاول أن يزحف على الأرض نحو أي مكان فخانته قدماه وذراعاه.. راح هاتفه المحمول يرن بإصرار طوال الوقت، دون أن يقدر على الوصول إليه.. جاهد كثيرًا أن يفعل أي شيء لكنه عجَزَ.. وفي النهاية ظفرَ به اليأس، فارتضى بالنهاية التي رآها دانية قريبة، فكفَّ عن المحاولة، ورقد باستسلام في انتظار موتٍ رآه حتميًا.

رأيته راقدًا على الأرض، واهنًا عاجزًا، فلم أتمالك نفسي، ورحت أبكي وأنتحب، وأنا أحتضن جسده الضئيل بقوة، كأنما ألتمس بهذا أعذارًا قوية لأنني لم أكن بجانبه حين جرى له ما كان.

كان ضميري متتأججاً بداخلي، مؤنِّبًا إياي عن تركي لأبي يعيش بمفرده.. ورحت ألوم نفسي، وأنا لا أدري كيف أكفِّر عن ذنب كهذا ارتكبته في حق أبي..

لم يحدثني حينها، واكتفى بنظرات مؤنبة صامتة، يرمقني بها وقد استكان جسده الضعيف بين يدي دون مقاومة أو تذمُّر.. حملتُه إلى الحمَّام، ونظفته من فضلاته التي عجز عن كتمانها فتحررت.. بدَّلتُ ملابسه المتسخة بأخرى نظيفة، وذهبت به لحجرته، ثم استدعيت الطبيب.

فحصه الطبيب ليخبرني أنها جلطةً قد استكانت في مكان ما في ثنايا مخه، فأنهت قدرته على التحكم بشقه الأيمن للأبد.. وأصابت شذرة من تلك الجلطة اللعينة لسانه فأثقلته هو الآخر وأخرسته.. صار نطقه عسيرًا ثقيلاً، مبهما غير مفهوم..

لم أكن لأتركه حينها في البيت بمفرده ، وقد صار في حاجة لمن يرعاه ويهتم بأمره طوال الوقت.. أخبرته أنني سأصطحبه ليعيش معي في منزلي بالقاهرة، فارتجف بدنه في ذلك الوقت، وامتقع وجهه، ورمقني بذعرٍ منزعجًا مما قلته، وقد اتسعت عينه السليمة، وضاقت الآخرى الواهنة وتجعدت أجفانها..

راح حينها يجاهد بإعياء كي يتحدث، فخرجت منه الكلمات ممزقة. مرتبكة وغاضبة:

- لن أغادر البيت أبدًا، ولن أذهب إلى أي مكان.. يمكنك أن تقيم أنت هاهنا لو شئتَ رعايتي، لكنني لن أترك البيت.

قالها وراح يلهث بإعياء وهو كظيم.. لم أرغب في معارضته في مرضه وضعفه هذا.. لكنني لم أكن لألبِّي رغبته هذه أبدًا.. لم أكن لأعود للبيت ثانية..

ليس بعد كل تلك الأعوام الكثيرة من انتقالي للقاهرة حيث عملت وتزوجت وأنجبت، كان من المستحيل أن أعود لبيت أبي مرة أخرى.. إن كان على أحد منا أن يغيِّر إقامته وبيته فهو أبي حتمًا وليس أنا.. أتمنى لو يَعِي هذا ولايركب رأسه عنادًا.

وقلت له وأنا أربت على رأسه بإشفاق، متحاشيًا النظر إلى عينه:

- تعلم أنني لا أستطيع أن أعود يا أبي.. في القاهرة حياتي وعملي وزوجتي وأولادي ومدارسهم.. إن حياتهم كلها بالقاهرة.. ومن المستحيل أن أغيِّر كل هذا، لأعود إلى هنا ثانية.

ترقرقت في عينيه دموع حارة، سالت على وجنتيه، وأشاح بوجهه للناحية الأخرى مبعدًا عينيه عنِّي، وغمغم بإحباط وضعف:

- إذًا، اتركني هاهنا وارحل.. عد إلى حياتك التي اخترتها ودعني للبيت.. إنه سيرعاني!.

كان الطبيب الشاب الذي فحصه قد طالبني بإبعاده تمامًا عمَّا يزعجه أو يثيره.. لذا صمتُّ دون أن أسأله كيف أتركه بمفرده بالبيت وهو مريض هكذا؟.. بل وكيف سيرعاه البيت كما يظن، ولماذا لم يفعل حين مرض فجأة؟!

لكنه لم يصمت.. وراح يجاهد لسانًا عاجزًا كي يبوح بما في قلبه من أغلال تقيده بالبيت..

قال كلمات متقطعة كثيرة عن البيت.. كلمات لم أعِ أغلبها، تتحدث عن البيت الذي لايمكن مغادرته، وعن اللعنات التي ستنهال فوق رؤوسنا لو تركناه.. وتركته يبوح بما في صدره دون أن أجادله.

تكلم كثيرًا، وفي النهاية أطلق صرخة بائسة حانقة من حنجرته الكليلة، ليقول بعدها باكيًا:

- افعل ماشئت، ما دام مصيرنا لا يعنيك، لكن لتعلم أنك سوف تعود للبيت بإرادتك أو رغمًا عنك يومًا ما.. هذا مصيري ومصير أجدادي منذ دهور كاملة، وهذا هو مصيرك أنت أيضًا وذريتك من بَعدك.. أَعلمُ أنني لن أقدر على منعك الآن من نقلي إلى بيتك رغمًا عنِّي.. لكنك يومًا ما ستعرف الحقيقة، وسوف تندم حتما يومها على ما فعلته بي.. هيَّا أبعِدني أيها الشقي عن البيت، ولن أقاومك.. لكنني لن أسامحك أبدًا على ماتفعله بي.

وراح حينها ينتحب بلوعة كأنما ستفارق روحه جسده على عتبة البيت حين يغادره.. كنت أشفق عليه مما يكابده من أفكار، ومن أشواقه الغريبة نحو البيت.. لكن كان عليه أن يعيش معي لأهتم به وأرعاه..

وهذا ما فعلته..

٢

أقطن في ضاحية المعادي بالقاهرة في شقة تحوي شرفة واسعة ترى منها منظرًا بديعًا للنيل في كل وقت. أحبَّ أبي تلك الشرفة، واعتاد أن يذهب إليها كل يوم قبل الغروب ليجلس فيها حتى موعد نومه.. بدا أن رؤيته للنيل تريح قلبه وتطفئ في نفسه الكثير من الأشوق التي لا تنتهي لبيت غادره مرغمًا..

ظلَّ يفكر في البيت دومًا ولا يبرح عقله يتذكره، ومازلت أذكر كيف مضت أيامه الأولى بمنزلي بالقاهرة عسيرة عليه وعلينا، وقد أصابته نوبة حادة من الاكتئاب الشديد.. صمت تمامًا ولم يعد يحدث أيًّا منا، وعفَّ عن الطعام أو الشراب، وامتنع عن تناول دوائه.. بدا وكأنما يبحث عن الموت ولا يعبأ بالحياة.. لم يكن هناك من بُدٍّ حينها من نقله لإحدى المستشفيات الخاصة للعناية به، وقد شارف الهلاك..

وفي المستشفى أمدوا جسده بما امتنع هو عن تناوله من طعام وشراب، وغيبوا عقله المتأجج بالتفكير في البيت، بالكثير من

المهدئات ومضادات الاكتئاب، كي يكف عقله ولو قليلاً عن التفكير في البيت..

لم أكف حينها عن التساؤل.. ما الذي يربطه بالبيت هكذا حتى إنه شارف على الهلاك من أجله؟!.. ولماذا يرفض عقله أن يغادره هو الآخر كما غادره جسده؟!..

لكنني لم أظفر أبدا بإجابات تطمئن قلبي أو تروي فضولي.. وأحمد الله أنه لم يهلك حينها.

مالَ الطقس إلى البرودة في هذا اليوم فنبهتني زوجتي لهذا، ونصحتني:

ـ حاول أن تقنع أباك أن يترك الشرفة.. الطقس صار باردًا وأخشى أن يسقمه هذا البرد و يمرضه.

كنت على وشك تبديل ملابسي حينها، وقد عدت من عملي فعدلت عن هذا واتجهت نحو الشرفة.. شعر بخطواتي، فقال دون أن يلتفت نحوي، بصوت تحسَّن الآن كثيرًا عما كان عليه منذ شهور:

ـ إذًا فقد عدتَ يا شاكر.. تعالَ إذا لتجلس بجواري وتستمع برؤية النيل معي.. إنه رائع اليوم.. رائع وصافٍ كما كان دوما منذ آلاف السنين.

جذبت مقعدًا من الخيزران وجلست بجواره، وأنا أجيبه مبتسمًا:

ـ أنت تعرف كيف تستمتع بوقتك جيدًا أيها العجوز.. ليتي أقدر أن أفعل مثلك.. لكن دعنا من هذا وقل لي، كيف حالك اليوم ؟

ـ أفضل منك لو كنت تسأل عن صحتي.. ألا ترى هذا؟!

- أرى هذا بالفعل، لكن أخبرني أيها العجوز.. ألا تشعر بالبرد؟.. لقد ارتجف جسدي من هذه اللحظات القليلة التي جلستها معك هاهنا.. إنه حقاً يوماً بارداً.

التفت نحوي بجسده، ورسم ابتسامة باهتة على فمه، بدا وكأن كلماتي أحرزت هدفا في مخيلته، وبعد حين غمغم بشيء من السخرية:

- لابد أن يرتجف جسدك من تلك النسمات الندية لأنك نسيت البيت وحياته وطقسه.. لكنني لم أنس بعد!.. تلك النسمات الباردة التي يرتجف جسدك منها هي ما يذكِّرني ببيتي وبيت أجدادي.. إنها نفس النسمات التي طالما حملها البيت لنا وأرسلها النيل إلينا.. إنها النسمات التي لم تسقمنا يوما ولم تقشعر منها أبداننا.

وشعرت بالحنق.. مرة أخرى يعود لحديثه عن البيت.. لا أعلم متى أحدثه يومًا في أمر ما دون أن يقحم البيت في حديثه.. ووجدت نفسي أقول له معاندًا:

- لكني أخشى أن تصاب بنزلة برد هذا اليوم.. أنت لم تسترد كامل قواك وصحتك بعد، ولا أظنك تحتمل هذا الطقس.

- أعدني للبيت وسأعود كما كنت.. أعدني له لأسترد قواي ثانية.. استمع إليَّ لمرة واحدة يابني، وانظر بعينيك حينها كيف سأكون.. افعلها وسترى!

غمرني الضجر، وتمالكت نفسي بصعوبة أمام إلحاحه، وهتفت به:

- يا أبي بالله عليك كف عن هذا.. ألم ننتهِ من هذا الحديث من قبل؟!.. لقد أخبرتك أنك لن تعود للبيت قبل أن تصير معافًا تمامًا..

أنت مازلت مريضًا، ومازلت في حاجة للرعاية والاهتمام.. أم هل ترانا قصرنا في حقك هاهنا لترغب في تركنا.

رمقني بعجزٍ للحظة بنظرة حمَّلها الكثير مما يعتمل بداخله، ثم أشاح بوجهه بعيدًا عنِّي، ونظر للنيل بشرود.. وغمغم بحسرة:

- يابني.. أنت لا تشعر بما أشعر به.. إنني هاهنا بعيد عنه.. بعيد عن الموطن.. إنني هنا رجل غريب.

ولم أتمالك نفسي للحظة، وقد أعجزتني كلماته الغريبة عن أن أتحكم في مشاعري، فقلت بصوت ارتفعٍ كثيرا:

- أي وطنٍ هذا الذي تتحدث عنه.. إنه بيت يا أبي لا أكثر.. كومة من الحجارة والأخشاب.. إن وطنك الحقيقي هو أبناؤك وأهلك، وها أنت بينهم بالفعل.. فأي غربة تلك التي تشعر بها؟

لم يبدُ أن كلامي قد أزعجه.. لابد أنه اعتاد رفضي للبيت، أو ربما هو عناده الذي اشتهر به.. لذا وجدته يقول بهدوء:

- لكنني بالفعل في غربة.. أعدني للبيت وستنتهي تلك الغربة.. إنني هاهنا ضد إرادتي وضد إرادة البيت.. إن البيت يناديني وعليَّ أن ألبِّي نداءه.. أعدني إليه ثانية ولو كان في هذا موتي.. إن هذه هي رغبتي فلا ترهقني بتعنتك هذا ولَبِّها.. عليك أن تفعل لو شئت أن تطيعني وترضيني.

لا أصدق ما يتفوه به الآن. أبي يرى أن للبيت إرادة ما، وأنه يناديه ليعود.. شعرت أن عقل أبي ينزلق يومًا بعد يوم نحو الهاويه والهذيان..

إنه على وشك فقدان عقله تمامًا..

رمقته باشفاق، وتنهدت بعمق كي أستعيدرباطة جأشي، وقلت هادئًا:

ـ أي أرادة وأي نداء يا أبي هذا الذي تزعمه.. إنه مجرد بيت.. إن كان البيت حيًا حقًا فهذا في عقلك أنت فقط.. وأنت الوحيد القادر على وأده وقتله.. أفِق يا أبي من تلك الأوهام وعد لصوابك، إنني أرجوك من أجل نفسك ومن أجلنا أن تفعل..

لم ترُوقه كلماتي، فابتسم بمرارة وتهدج صوته قائلا:

ـ أتعلم لماذا لا تغضبني كلماتك؟.. لأنك لم تعلم بعد.. لأنك لم تحيا طويلاً بين جنباته لتعلم أسراره.. لأنك لم تدرك الرابط الذي يجمعنا بالبيت.. إنني لست ناقمًا عليك أو غاضبًا منك.. إنني أشفق عليك من أعماقي.. أشفق مما أنت مقبل عليه وتجهله!.

عاد لصمته بعدها، وشرد ذهنه في عوالمه المجهولة لبرهة، قبل أن يقول بعدها، وهو يهش بيده اليسرى ذبابة خفية عن وجهه:

ـ أعلم أنك تسخر منِّي الآن ومما أقول، وربما تقول في اعماقك إنني قد صرت عجوزًا خرفًا.. لكنك يومًا ما ستدرك أن البيت لم يكن أبدًا ولن يكون مجرد كومة من الأحجار لا حياة فيها.. إنه حياة كاملة عاشها آباؤك وآجدادك.. ذكريات حقيقية لن تتبخر في الفراغ بغتة.. أحلام تحققت وآخرى مؤجلة.. البيت ميثاق لا يحتمل النقض بيننا وبينه.. ميثاق حافظنا عليه منذ عقود طويلة وسيأتي دورك يومًا ما للحفاظ عليه..

وبدا لي أنه لا جدوى من مجادلته أو الحديث معه في هذا الشأن.. وفككل مرة لم أرغب في الإثقال عليه فصمتُّ.. أعلم أن كل ما قاله عن الحياة بالبيت، والذكريات والميثاق الذي بيننا

وبين البيت، هراء لايجب الالتفات إليه أبدًا.. وأعلم كذلك أنني لن أعود للحياة بالبيت أبدًا..

إن بعقلي الكثير من الأفكار للبيت، والتي أؤجلها حتى يصير مِلكي.. لكني لن أخبره بما أنتويه كي لا أزعجه أو أغضبه.

وقطع أبي الصمت الذي دام بيننا طويلاً وقال:

- أين أبناؤك يا شاكر؟.. اسألهم أن يأتوا ليجلسوا معي.

كان لدي طفلان.. عبدالحميد الذي أسميته على اسم جده، ورامي الذي اختارت له أمه هذا الاسم.. ذهبت لحجرتيهما، وأخبرتهما أن جدهما يطلبهما.. كانا يحبانه كثيرا، لذا هرولا إليه على الفور.. وبعد قليل تعالت ضحكاتهم جميعًا.. فأطلقت زفرة حارة وتنهدت بارتياح لضحكاتهم..

ليت سعادته بهما تنسيه البيت وأوهامه، وتدفعه للعدول عن مطالبته لي دوما بالعودة للبيت.

ليت هذا يحدث!.

لاتعيش أختي الوحيدة أسماء بمصر الآن.

تخرجت من كلية الصيدلة منذ خمسة أعوام، وتزوجت بعدها بزميل لها، وغادرت معه إلى الكويت حيث كان يعمل.. لكنها حين علمت بما أصاب أبي، عادت لمصر من فورها جزعًا وقلقًا.. وازداد توترها وقلقها حين رأت أبي وما وصل إليه..

همست إلي، ودموعها تنساب على خديها بلا انقطاع، وقد إنتفخ جفناها وتورما، وصارت عيناها حمراوين كالدم:

ـ لا أصدق أن ينتهي الأمر بأبي هكذا.. عبدالحميد بك منصور، الذي كانت القرية بأسرها تهتز لنظرة منه، يصير قعيدا عاجزا، لا يستطيع أن يهش عنه ذبابة حقيرة، لو ضايقته.. إن هذا كثيرٌ لا يحتمل.

أعلم كم تحب أبي، وأدرك كم يحنقها ما وصل إليه من ضعف ومرض بعد أن عاصرت قوته وفتوته.. آلمني وجعها فانتقلت لجوارها وضممتها لصدري بإشفاق، وقلت محاوِلاً التخفيف عنها:

ـ لتحمدي الله على ما وصل إليه الآن.. أنتِ لم تشاهدي كيف كان قبل ذلك.. كان الأمر أسوأ كثيرًا ممَّا عليه الآن.. لقد استرد كثيرا من عافيته وصحته التي سلبته تلك الجلطة اللعينة إياها.

ـ لكنني لا أبكي فقط ذلك الشلل الذي أصابه.. إنني أبكي ما آل إليه عقله، ألم تلحظ كيف صار يتحدث حديثًا غريبًا لا يعقل.. هل تعلم أنه طلب منِّي أن أقنعك بأن تعيده لبيتنا القديم ثانية.. إنه يظن أن في هذا شفاءه.. حاولت أن أفهم منه كيف سيحدث هذا.. وحتى الآن لا أصدق ما أخبرني به.. إنه يعتقد أن البيت سيرعاه ويبرئه مما به..

قالتها وراحت تنتحب. لم أجد ما أعزيها به، وفتشت عقلي عما أخفف به عنها، فقلت لها مازحًا:

- وهل حدثك عن العهد والميثاق الذي بيننا وبين البيت؟.. أراهن أنه قد فعل.. هذا ما لا يكف عن الحديث عنه.

- إنه أخبرني به بالفعل.. لقد ظل يحدثني أن بيننا وبين البيت ميثاقًا قديما، وأن البيت يرعانا من أجل هذا، وأننا حتمًا عائدون إليه ثانية.

لم يدهشني ما تقوله.. لقد سمعت هذا الهراء مرارًا، فقلت بلا مبالاة:

- دعك مما يقوله.. إنها تلك الجلطة اللعينة التي أصابته.. هذا ما أخبرني به طبيبه.. لقد سببت له خللاً شديدًا في مراكز إدراكه ووعيه، ولابد أنها هي السبب في تلك الأشياء الغريبة التي يفكر بها ويعتقدها.

وغرقنا في الصمت لبعض الوقت، قبل أن يهدأ نحيبها.. مسحت دموعها بالمنديل ثانية، وعدلت من ملابسها، وقالت بجدية:

- وهل تعتقد أن ما يذكره مجرد هذيان سببه المرض؟.. ألم ترَ كيف يتحدث عن البيت بإصرار غريب.. أنت تعلم جيدًا أن هناك شيئًا ما غامضًا ومخيفًا بهذا البيت.. لقد ظل البيت مثار دهشتنا وحيرتنا دائمًا.

- يا إلهي!.. بالله عليكِ لاتكرري ثانية ما قلتِه.. لا أصدق أنك أنتِ الأخرى تعتقدين في هذا الهراء.. يا عزيزتي، الشيء الوحيد الغامض والذي يتعلق بالبيت هو الأوهام التي غُرِسَت بعقولنا.. إننا من يختلق مثل هذه الأوهام ثم يصدقها، وما هو في النهاية إلا بيت عادي، مثله مثل مئات الملايين من البيوت في كل مكان.

لم يبد على وجهها الإقتناع بما قلته، وقالت بإصرار وعناد:

ـ وهل نسيت كيف كان جدنا يرفض بحزم، أن يغادر أحدنا البيت إلا للضرورة.. ألا تذكر كيف كان أطفال القرية يرفضون أن يأتوا لزيارتنا في البيت، حين كنا صغارًا.. هل نسيت نادية شحاتة، صديقتي التي قالت لي حين سألتها لماذا لاتزورينني، فأجابتني أنها تخاف من بيتنا.. إن بيتنا لم يكن أبدًا في أي يوم بيتًا طبيعًا، لكننا نحن من كان يتجاهل هذا.. لقد تعمدّنا أن نغمض أعيننا ونَصمُ آذاننا ومشاعرنا، عمَّا نحس به نحو البيت.

كنت أفهم ما تقوله.. وكنت أعلم الأقاويل التي تناثرت في كل مكان حول البيت.. لكني كنت أعزو مثل تلك الأقاويل إلى قِدَم البيت.. لقد بناه أجدادي منذ قرون، وقد كان أقدم بيت في القريه كلها.. هذا ما أخبرني به جدي يوما ما .. لقد كان أول منزل تم بناؤه وسكناه بالقرية.. ولهذا فلابد أن تختلق عنه بعض الحكايات والأساطير مع مرور الزمن.. إن الأشياء القديمة تثير الخيال والظنون على الدوام.

لابد أن أهل القرية كانوا يتعجبون من أن أجدادي قد بنوه بالأحجار الضخمة والأسقف المرتفعة، في وقت كانت كل البيوت من حوله طينية منخفضة.. ولابد أن بناءه على هيئة قصر، ذو برج خلفي مرتفع يصل للسماء، كان غريبًا حينها على أذهانهم التي لم تعتد شيئًا كهذا.. لكن أجدادي كانوا أثرياء بلاشك، وكان من حقهم أن يشيدوه كما يشاءون..

إننى أوقن أنه لاشيء حقيقي في هذا البيت، إلا أوهام صنعها الجهل والقدم والغرابة.. ولهذا قلت لأختي محتدًا:

ـ كفي أنتِ الأخرى عن هذا الهراء، ولا تحاولي أن تختلقي أساطيرَاً حوله.. يكفيني أساطير أبي التي لايملّ منها.

إلا أنها قالت معترضة:

- وماذا عن أمي؟!.. أمازلت تذكر كيف ماتت، أم تراك قد نسيت؟

شعرت حينها بالحنق.. لم يكن عليها أن تعيد إلي ثانية تلك الذكرى الأليمة.. كانت تجرني للذكرى التي أحاول أن أتناساها دومًا وما أنفك أعود لها..

كيف ماتت أمي؟!.

نهضت من مقعدي، واتجهت إلى النافذة، وتطلعت بشرود إلى النيل الرابض بسكون تحت أضواء أعمدة الإنارة الحمراء، وعشرات المراكب تكسو سطحه كطحالب قميئة.. لفنا الظلام والأفكار لبرهة، ثم غمغمت دون أن ألتفت إليها:

- لقد كان حادثًا.. مجرد حادث لا أكثر.

- لكنه لم يكن كذلك ومن المستحيل أن يكون كذلك.. أنت تعلم هذا، بل كنت أنت من أخبرني بهذا من قبل.. أتود أن أذكِّرك بما ذكرته لنا حينها؟.

وأجبتها ببرود:

- لقد كنا صغارًا في ذلك الوقت، ولابد أن للأوهام والخيالات دورًا فيما تخيلته قد حدثَ.. لقد كنت أهذي حينها حتما.

- هذه ليست الحقيقة.. لقد رأيت بعينيك ما حدث.. بل أنت الوحيد الذي رأيته.. لقد قتلها البيت!.. وهذا ما هددها به جدنا قبل رحيلها.. أليس كذلك؟!

لم أعقب على ما قالته، وصمتُّ.. وسبح عقلي مرة واحدة نحو الماضي البعيد.. إلى أمي..

إلى أمي التي ماتت في ذلك البيت المشئوم أمام بصري.

وطفت على صفحة ذاكرتي، ذِكرىً كريهةً ليتني أنساها يومًا..

٤

كان خطأً من أبي أن يتزوج من أمي..

خطأ أدركه كلاهما بعد حين، لكن هذا حدث متأخرًا للغاية..

فتلك الفاتنة التي عاشت وتربت بحرية وانطلاق في الإسكندرية، لم تكن لتتقبل طويلاً أن تحيا حبيسةً، بين جدران بيت ريفي ممل، حتى لو كان قصرًا.. كان عليها أن تعي هذا في البداية، لكنها لم تفعل.

كان أبي قد تعرَّف على أمي في إحدى زياراته للإسكندرية.. أعجبها وأعجبته، فخطبها على الفور.. لم يكن جدي راضيًا عن اختيار أبي، ويبدو أنه كان أكثرهم حكمة، حين خمن مبكرًا كيف ستكون النهاية.. لكن أبي كان مصرًّا، فلم يملك جدي إلا القبول مرغمًا.

أنجباني ومن بَعدي بأعوام جاءت أختي.. لا أذكر الكثير عن أمي في طفولتي، لكنني ومن بين أسرار ذاكرتي، أذكر أنها كانت دائمة الشجار مع أبي.. كما كانت قليلة الابتسام نادرة الضحكة، بخلاف ما كنت أراها عليه في ألبوم صورها، الذي حملَ بين طياته الكثير من ذكريات صباها وشبابها المبكر قبل الزواج، والذي كانت تحب دومًا أن تتطلع إليه سابحة في ذكرياتها السعيدة البعيدة.

لم تكن أمي سعيدة.. أدركتُ هذا حين تعلمت أن هناك شيئًا اسمه سعادة وشيئًا في المقابل يدعى التعاسة.. كانت تكره البيت، وتكره تعلُّق أبي وجدي به، وكانت تخشى جدي ولا أدري سر ذلك.. فلم أرَه يسيء معاملتها يومًا أو يغضبها.

في النهاية وحين أدركَتْ أنها لم تعد تحتمل الحياة هكذا، أسيرة لجدران هذا البيت للأبد، قررت الانفصال عن أبي وطالبته بالطلاق..

ثار أبي بشدة، وقد كان يحبها.. كنت حينها أتلصص عليهما، دون أن أشعر بالعار من أن أفعل شيئًا كهذا.. كنت أرغب في أن أعلم كل شيء يدور بينهما، وأن أطمئن إلى ماستؤول إليه الأمور بينهما.. إنها أمي وقرارها سيؤثر حتمًا بصورة ما على مصيري أنا وأختي الصغيرة حينها..

أخبرها أبي أنه يحبها.. لكنها احتدَّت عليه بأنه لو كان يحبها حقًا لغادر البيت معها، وعاشا سويًّا في مكان آخر حيث يمكنهما أن يجدا السعادة.

ومازلت أذكر ما قاله لها حينها برجاء وعجز:

- إنني لا أستطيع أن أترك أبي أو البيت.. لا يمكنني أفعل هذا.. هذا أكبر مني.

سألته محتدةً، ثائرةً:

- ولماذا لا تفعل؟.. وماذا بالبيت من أسرار تخفيها عني؟.. أخبرني بالحقيقة وأعدك أن أتقبلها حينها، وأن أبقى معك، لو كانت مبررة ومفهومة.

لكن أبي لم يعطها الإجابة التي تبغيها، بل أجابها بأسف:

- لا أستطيع أن أخبرك بشيء.. ليس من حقي أن أفعل..

هنا اشتعل الغضب في وجه أمي، وصاحت فيه بثورة وعناد:

- وأنا كذلك لا أستطيع أن أحيا هنا ثانية.. إنني أريد الطلاق وسأحصل عليه، ولتحتفظ أنت بأسرارك وأسرار بيتك. ولأعيش أنا حياتي كما يحلو لي.

حاول أبي إثنائها عن رغبتها، لكنها كانت عنيدة للغاية.. وحين عجز عن إقناعها، أرسل لها جدي ليمنعها.. لم يتكلم جدي حينها كثيرًا.. كان صارمًا مخيفًا.. واكتفى بأن قال لها مهددًا:

- لن تغادري هذا البيت أبدًا ولن يطلقك ابني.. لقد صرت فرداً من أفراد العائلة.. صرت واحدة منا، فلا تعتقدي أن البيت سيترك تغادرينه.. تقبَّلي الأمر أو تحمَّلي عواقب قرارك..

ولم يَردعها تهديده المستتر.. بل وردت عليه بتحدٍّ مماثل:

- إنني سأغادره، ولن يمنعني أحدٌ ما من فعل هذا.. على شاكر أن يحدد بعدها، إن كان يريدني فيلحق بي، وإلا فهناك الطلاق.. لكنني لن أمكث في هذا البيت بعد الآن.

وتركها جدي بلا تعقيب، فجمعت حاجاتها وأشيائي أنا وأختي، وطلبت منا أن نستعد للرحيل معها..

حملت حقيبة ملابسنا جميعًا وحملت أختي التي كانت بالثالثة من عمرها حينها وتقدمتني للخارج.. كان الوقت حينها ليلاً ولا أدري لماذا لم تنتظر الصباح!..

وحين بلغنا للحديقة الضخمة الواسعة التي تحيط بالبيت، وسرنا بين أشجارها السامقة المتشابكة، اضطربت أمي فجأة، وبدت مذعورة كأنما هناك ما يفزعها ويخيفها، حتى إن حقيبتها سقطت من يدها..

لم أرَ حينها أي شيء غريب بالمكان، لكني مازلت أذكر الذعر الذي ارتسم على وجه أمي، وكيف صارت أنفاسها متلاحقة سريعة.. وشعرتُ بالفزع فبدأت في البكاء.. راحت تهرول نحو باب البيت كأنما تلاحقها الشياطين، وقد تركت حقيبتها وتمسكت فقط بأختي، وطلبَتْ مني أن أعدو مثلما تفعل، فرحت أجري، وأنا أحاول جاهدًا اللحاق بها دون أن أقدر..

لكنها تعثرت فجأة بشيء ما فسقطت، وسقطت أختي هي الآخرى على مقربة منها، وسقطت أنا الآخر خلفيهما بلا سبب..

هل ما أتذكره بعدها قد حدث فعلاً، أم أن هول الصدمة لفقدان أمي هو ما دفع عقلي لاختلاق ماحدث؟

وحتى هذة اللحظة لا أدري..

ما أتذكره أنني رأيت أمي وقد أحاطها شيء ما كالضباب أو الدخان الأسود، وقد برز من حولها فجأة من العدم.. كان الضباب مخيفًا للغاية وقد أطلق الكثير من الخيالات والهواجس في رأسي فأثار رعبي.. وما أثار هلعي حقًا هو ذلك العبد الأسود الذي بدا

واضحًا بين الضباب، وهو يحيط بأمي.. كان مخيفًا للغاية بقامته الضخمة ورأسه الأصلع اللامع، وعيونه السوداء الواسعة المخيفة، ووجهه الجامد.

رحت أبكي وأنا أناديها، لكن الضباب الأسود كان قد غمرها تمامًا دون أن يصدر منها استغاثة أو مقاومة ما.. وسمعت حينها الزمجرات القوية الشريرة، والأصوات المرعبة التي لاتنتمي للحناجر الأرضية..

بعدها لم أشعر بنفسي ولا أدري إن كنت قد نمت حينها أم فقدت وعيي.. لكنني حين استيقظت علمت أن أمي قد ماتت.. أخبرني جدي أنها سكتة قلبية وقد كان هذا ما وجدته مدوَّنًا في شهادة وفاتها..

هل قتلها البيت حقًا كما هددها جدي؟.. أم أنها ماتت ميتة طبيعية بالسكتة القلبية كما ادعى جدي؟!.

وهل ما رأيته حينها كان حقيقيًا.. أم أنه وهم اختلقه عقلي، وقد ساعد تهديد جدي لأم،ي في أن يرسم عقلي نهاية مزيفة لما حدث لها..

إننى حتى الآن لا أدري!..

- ٥ -

يحب أبي ابنيَّ كثيرًا، ويصير أكثر سعادة ومرحًا حين يلاعبهما ويحدثهما..

كنت أعلم أنه يميل بمشاعره لعبد الحميد عن رامي بعض الشيء.. ربما لأنه يحمل اسمه، وربما لأن الشبه يجمعهما سويًا.. لكنه مع ذلك لم يشعِر رامي بهذا أبدًا، فقد كان يغمره هو الآخر بمحبته ودعاباته.. كان كثيرًا ما يقضي أوقاته معهما، حيث يسليهما بحكاياته ومسامراته..

كان أمرًا طبيعيًا كما ظننته.. جد يحب أحفاده ويأنس بهم.. لكن زوجتي كان لها رأي آخر.. بدت منزعجة، وقد أدركت مايصبو إليه أبي من حكاياته اللاتي يلقيها على أذنيّ الطفلين..

ولم تحتمل كثيرا كتمان مخاوفها في صدرها، وألقت على أذني ذات يوم بمخاوفها:

ـ أعتقد أن عمي شاكر يهيء الأطفال للعودة للعيش في البيت ثانية.. أشعر أن هذا ما يصبو إليه بما يقصه على آذانهما من حكايات مشوقة عن البيت.

أدهشني ما تقوله، فقلت محاوِلاً طمأنتها وأنا أضحك لطرافة الأمر:

- لاتهوِّلي من الأمر يا حبيتي ولاتعطيه أكثر من حجمه.. فحتى لو كان هذا مايصبو إليه أبي فلن يحدث. لن يغادر الأطفال القاهرة ليرحلوا عنها، ولن يحتملوا أبدا العودة للبيت القديم والحياة في الريف.

- أنت لاتعلم ماحدثني به عبدالحميد بالأمس.. لقد سألني لماذا لانذهب جميعًا للعيش ببيت جده.. بل وقال لي إنه لو كان الأمر بيده لذهب إلى هناك ليعيش به للأبد.

لم يزعجني ما قاله طفلي لها، ورأيت أن كلامه محملاً بالكثير من المبالغة والحماس الطفولي، فقلت باستخفاف:

- إنه مجرد طفل ياحبيبتي، طفل تداعبه الخيالات.. لابد أن حكايات جده عن البيت، وعن حديقته الغنَّاء الواسعة، قد ألهبت خياله فتمنى أن يقضي عمره هناك.. إنه مجرد انبهار طفولي كأي انبهار آخر يراود الأطفال في كل لحظة.. هل هناك من طفل لايتمنى أن يقضي عمره كله في مدينة الملاهي.. إنها الأوهام الساذجة للأطفال فلا تقلقي.

ولم تعقب، وإن بدا أن هواجسها التي تضطرم بداخلها لم تهمد.. وقررت أن أرى بنفسي ما الذي يخبره أبي لأبنائي عن البيت.. لكن ليكن هذا خلسة كي لايشعر بي، فيحجم عما يخبرهما به درءا لاعتراضي واحتجاجي عليه حينها..

وفي المساء، دخل الطفلان الشرفة كما يفعلان كل يوم، وكان أبي على مقعده كعادته، يرقب المارة والنيل.. هشَّ لهما وبشَّ، ثم طلب منهما أن يقتربا منه، فحركا مقعديها ليلتصقا بمقعده.. كنت

حينها أجلس مباشرة خلف باب الشرفة في مكان كان من الصعب أن يدركوا من مكانهم وجودي..

وسمعت أبي يقول لهم، ولابد أنه كان يشير إلى النيل حينها بيده:

- انظرا النيل الجميل.. ألاتريان كم هو رائع ومبهج وعظيم.. إنه سر الحياة الحقيقة لنا جميعًا.. لا متعة في هذا العالم تضاهي تأمُّله، والنظر إليه.. آه لو تدركا كم يبهج هذا صدري وفؤادي.

وردَّ عليه رامي، بحماس طفل في العام السامن من عمره:

- إن النيل جميل جدًا يا جدي وأنا أحبه كثيرًا.. إن الكثيرين من أصدقائي يغارون مني، لأنني أعيش في منزل يطل على النيل وأراه منه في كل وقت.. يقولون أنني محظوظ بهذا.

هنا أجابه أبي بظفر:

- وسيشتعل غيظهم وغيرتهم منك لو علموا أن لك بيتًا يشبه قصور ألف ليلة وليلة تمامًا، ويطل هو الآخر على النيل مباشرة.. إن النيل جميل هاهنا، لكنه لا يُقارَن أبدًا بجماله هناك في المنيا أمام البيت القديم لأجدادكما، كما أن الشرفة العالية المواجهة للنيل في البيت القديم كبيرة جدًا ومتسعة، حتى إنها لتقارب حجم شقتكم هذه كاملةً.. هل تتخيلان كيف يمكنكما أن تلعبا وتمرحا بداخلها لو كنا نعيش هناك.. كنتما لتستمتعا بأوقاتكما هناك كثيرًا لو كنتم تعيشون هناك.

سأله عبد الحميد بحيرة:

- ولماذا لانذهب إلى هناك إذًا.. ما الذي يمنعنا أن نفعل؟

وأجابه أبي على الفور:

- سَل أباك!.. إنه من يرفض هذا.. إنه لا يريد أن يفهم أن البيت قدرنا جميعًا.. وهو لا يعلم أن البيت لم يتركه بعيدًا طوال هذا الوقت إلا لأنني موجود.. لكنني لا أضمن أن يستمر هذا بعد موتي.. ليته يدرك هذا ويعود بنا جميعًا إليه. ليته ينسى عناده مرة ويفعل.

لابد أن أيهما لم يفهم مايقصده، فسأله رامي بحيرة:

- إنني لا أفهم ماتقوله ياجدي..

- لا يهم الآن أن تفهم.. فحين تصير بالغًا ستفهم حتمًا ما أعنيه..

غمرهم الصمت للحظات قررت خلالها أن هذا كافٍ.. لكن أبي عاود حديثه فعدت أدراجى ولم أقاطعهم، وعدت لأستمع لما يقوله:

- هل تعلمان ما هو الوطن وما يمثله لنا؟

أجابه عبدالحميد بسرعة:

- إنه البلد الذي وُلِدنَا به ونعيش فيه.

صمت أبي للحظة، ثم قال بصوت رخيم:

- الوطن يا عبدالحميد أكبر من هذا بكثير.. إنه المكان الذي تعيش عمرك كله فيه ويحمل في ثراه وهواءه ذكرياتك وأحلامك وآلامك.. إنه المكان الذي يحميك ويأويك ويلبي كل متطلباتك التي

تكون في حاجة لها.. إنه المكان الذي تشعر أنك مستعد للذود عنه بحياتك لو مسه مكروه ما، وتشعر بالتيه لو ابتعدت عنه حيناً.

وصمت بعدها فقال عبدالحميد بحماس:

- لهذا مصر هي وطننا.. إنها تفعل كل هذا..

-أجل،إنها كذلك.. إن مصر هي الوطن الأكبر لنا جميعًا لانها تمنحنا كل ذلك.. لكن هناك أوطانا أخرى أصغر وأكثر خصوصية.. إن شارعك الصغير هو وطن داخل الوطن.. قريتك الصغيرة هي وطن آخر.. وقد يكون الوطن الصغير هو بيتك، مثلما هو بيتنا الكبير الذي سنذهب إليه يومًا ما جميعًا مرة أخرى.

وقال له عبد الحميد منبهرًا:

- هل تعني أن بيتك الكبير يا جدي به كل تلك الأشياء التي ذكرتها.

تهدج صوت أبي، وأجابه بلهجة مملوءة بالشجن:

- كل هذا وأكثر يا بني.. البيت لم يمنحنا المأوى أو الحماية فقط.. لقد منحنا الكثير.. إن به الكثير من الأسرار والخفايا التي لن تدركاها إلا لو ذهبتما وعشتما فيه.. إنه وطننا الحقيقي !..

هنا قال عبد الحميد بإصرار طفولى:

- هل أخبرك بسرٍ ياجدي؟.. لو رفض أبي أن نعود إليه، فسوف أعود إليه أنا حين أكبر.. إنني مثلك أحب البيت وأتمنى أن أعيش به مثلك تمامًا.. أعدك أن أعود إليه حين أكبر.

لابد أن ما قاله قد أسعد أبي بشدة، لكنني قطعت كل هذا حين دخلت عليهم فجأة وقد اكتفيت بما سمعته.. كان ماقاله أبي خطير، وأدركت الآن لماذا انزعجت زوجتي من هذا..

كان أبي يغرس بداخلهما حب البيت، وشعرت أنه قد نجح في هذا.. أهذا يعني أنهم قد يعودون إليه ثانية.. لكن حتى لو فعلوا فلن يكون للامر أهمية حينئذ.. فحينها حتى ولو ظل البيت قائمًا فسأكون قد بعته ولم يعد مِلكًا لنا..

جميعهم لايدري أنني لاأنوي الاحتفاظ بالبيت بعد موت أبي.. لكنني لم أشعر بالراحة أبدًا مما سمعته.. وظللت طوال ذلك اليوم متعكر المزاج.

٦

من مذكرات السيدة كوثر حلمي زوجة الأستاذ شاكر عبدالحميد:

أحب حماي بالفعل، ولا أ هذا الشعور.. إنه رجل طيب القلب ولم يكن مزعجًا أو فضوليا قَط.. فمنذ اقترنت بزوجي لم أرَه يومًا يتدخل في شأنٍ من شئوني أنا وزوجي.. كانت هذة الصفة مما أحبه في الرجل، ولهذا حين أُصِيبَ بالشلل- شفاه الله منه- لم أنزعج لانتقاله للعيش معنا، مع ما يحمله هذا من أعباء أُلقيَت على كاهلي نحوه، فصار عليَّ أن أهتم بغذائه وأن أهتم بدوائه، وكذلك نظافته الشخصية أحيانًا..

كل هذا لم يكن ليضايقني أو يزعجني حقا.. ويشهد الله إنني صادقة في هذا ولا أدعيه.. كنت أرى فيه أبي المريض الذي أصيب بالسرطان، وظل يعاني من آلامه وقسوته لشهورٍ طويلة، كنت أنا حينها مَن يرعاه في كل شيء حتى توفاه الله.. لهذا لم يكن ما أقوم به نحو حماي جديدًا عليّ، وقمت به راضية من أجل الله ومن أجل زوجي.

لكنني ومنذ البداية لاحظت كيف كان عقل حماي وتفكيره غريبين.. ظل طوال الوقت يتحدث عن بيته القديم الذي تربى وعاش فيه،ولم يملّ يومًا من مطالبة زوجي أن يعيده للبيت ثانية.. كان إلحاحه هذا غريبًا، لكني أوعزته لطبيعة حماي ونشأته الريفية؛ حيث يرتبط هؤلاء بمساكنهم وأراضيهم بشدة، ويكون من العسير عليهم أن يفارقوها..

ردد كلامًا مبهمًا عجيبًا عن ميثاق ما، ونداء غامض يدعوه للبيت.. حديث قابله زوجي بالاستخفاف وعدم الاكتراث، بل وطالبني أن أسايره فيما يظنه، وألا أزعجه بمجادلته في ما يؤمن به، كي لا أثقل عليه.. في الواقع لم أكن بحاجة لأن يطلب زوجي

هذا مني، لأنني لم أكن لأفعل.. لكنني كنت أشعر بالحيرة من الأمر كله.

لكن ما أزعجني حقًا هو ما بدأ أبنائي يرددونه على أسماعي، عن رغبتهم في العيش ببيت جدهم القديم.. هنا شعرت بالهلع وقد خشيت أن يكون قد نجح في زرع أوهامه تلك في عقولهم الصغيرة، وما يعنيه هذا من ايمانهم بخرفات لا أصل لها، وتعلقهم وتصديقهم لها..

وفعلت حينها شيء لم أفعله من قبل –وأقسم على هذا-. لقد إسترقيت السمع إلى مايقوله لهم.. كان هذا تجسساً وهو خُلقٌ وضيِّع لو فعله المرء، لكنني في النهاية أم تخاف على أبنائها، ومن حقها أن تعلم كل شيء يخصهم، ويدور حولهم، وأن تدفع عنهم أي خطر ما لو شعرت بهذا.

كان يحدثهما عن البيت حديثًا آسرا وجميلاً.. عشرات الحكايات عن الأجداد الذين عاشوا فيه وصراعاتهم مع الأرض والسلطة والأهالي من حولهم.. حكايات مشوقة عن البيت وما به من أسرار وذكريات.. إن حماي هذا بارعٌ للغاية في القص والحكايات.. إنني أعترف بهذا، ولهذا فهمت لماذا تعلق الأبناء بالبيت، وصاروا يرغبون في الانتقال للعيش به.

قصصت ما حدث على زوجي، لكنه طمأنني وأخبرني أن الحل بسيط للغاية.. سوف يبيع البيت فور انتقال البيت هذا إلى حوزته بالميراث، وهذا إجراء كفيل برأيه بإنهاء تلك الأحلام التي تراود الأبناء حول البيت.. كان حلاً معقولاً فلم أعد أكترث للأمر بعدها كثيرًا، وتركت الأبناء لجدهم وحكاياته.

كنت أيضًا حينها قد اعتدت من حماي أشياء غريبة.. كان كثيرًا ما يهمهم بكلمات غامضة لا أتبينها أو أعيها، حتى لو كنت ملاصقة له بجواره.. واعتدت كذلك على محادثات مبهمة بينه

وبين أشخاص خفية، تدور كلها حول البيت وتنتهي غالبًا ببكاء طويل من أجله..

لا بد أنها الجلطة التي قد عطَّلت حُسن إدراكه، فصار يتوهم هؤلاء الأشخاص والأشباح ويحادثهم.. وربما كان هذا من علامات اقتراب الممات.. لقد فعلها أبي من قبله قبل موته بقليل، وراح يحادث ويناجي حينها أشباحاً خفيَّة، وأقاربًا لنا ماتوا منذ أعوام بعيدة، وصار يزعم أنه يرى أناسًا لم يعودوا في عداد الأحياء..

لكن ما حدث بعد ذلك كان غريبًا ومخيفًا..

كان هذا بعد منتصف الليل ذات ليلة.. شعرت بمثانتي ممتلئة فنهضت مترنحة نحو الحمَّام.. كان عليّ أن أعبر من أمام حجرة حماي وأنا في طريقي نحو الحمام.. هنا تناهت إلى مسامعي أصوات غامضة مبهمة تأتي من خلف الباب المغلق لحجرته.. في البداية فكرت أن حماي ربما كان نائمًا يتحدث في أحلامه، أو ربما كان متيقظًا يحادث أشباحه الخفية كما اعتاد أن يفعل.

مضيت حينها في طريقي ولم ألقِ للأمر بالاً.. لكنني حين عدت ومررت ثانية من أمام غرفته، كانت الأصوات أكثر وضوحًا وتمايزًا عمَّن قبل.. توقفت أمام الحجرة وقد ميزت من بينها صوت حماي، كما ميزت صوتًا آخر أكثر غلظة وأكثر قسوة.. هنا غمرتني رجفة وخوف مبهم، ورحت أفكر بجنون.. أيكون هناك أحد آخر ما بالغرفة معه؟!..

كنت أوقن من هذا.. إنني أستمع بالفعل لصوت آخر غير صوت حماي، وإن كنت لا أعي ما يدور بينهما بالداخل..

فكرت أن أذهب لزوجي طلبًا للنجدة.. فربما كان لصًا، قد يؤذي حماي.. لكنني قبل أن أفعل أردت أن أستيقن من الصوت، وأن

أعلم ما الذي يدور بينه وبين حماي من حديث.. ففعلت مرة أخرى ما أكره أن أفعله.. ووضعت أذني على الباب المغلق وتنصت لما يقال..

شعرت بالفزع مما سمعت.. كان الصوت الغامض يطالبه بالعودة إلى البيت.. وكان حماي يبكي ويقول من بين بكائه أن مرضه يعوقه عن هذا.. لكن الغريب كان مُصرًّا وراح يهدد تهديدًا غامضًا لم أعِه.. فطالبه حماي أن يهبه الشفاء وسيفعل حينها ما يريده..

كان هذا فوق احتمالي واحتمال فضولي، ففتحت الباب واندفعت للداخل بلا تفكير لأرى بعيني ما الذي يحدث بالداخل..

كان عمي جالسًا على فراشه وبجوار نافذته كان هناك شيء آخر.. طيف ما أو هو ضباب ما.. لست أدري تحديدًا فأنا لم أرَه جيدًا، لكنني لا زلت أذكر زوجًا من العيون المتوهجة وسط الضباب رمقتني بغضب.. وبعدها لم أعِ أي شيء فقد فقدت وعيي..

أفقت بعد قليل لأجد حماي راقدًا بجواري يحاول جاهدًا أن يعيدني للحياة ثانية.. كنت أشعر بالتيه والدوار يعتصرني.. تحاملت على نفسي واستندت إلى الحائط، وعدت مريضة واهنة إلى فراشي دون أن أجسر على النظر إلى حماي..

لم أنَم طوال الليل خوفًا وأرقًا.. لم أكن أدري هل ما رأيته كان وهمًا، أم أن تلك العيون المتوهجة المخيفة كانت موجودة حقًا..

ولم أكن أدري كذلك ما عليَّ أن أفعله، وهل أُخبِر زوجي بما رأيته أم أكتمه بداخلي..

لا أدري لماذا قررت أن أخفي عنه ما حدث لي، وأن أحتفظ بما حدث لنفسي.. ماهي مبرراتي لهذا ولماذا فعلت؟.. لا أدري !.. لكنني لأيام بعدها رحت أتحاشى الحديث الطويل مع حماي وفعلَ هو المثل..

إنني حائرة مضطربة ولا أفهم ما يحدث حولي.. وهناك خوف مبهم ونذير غامض يوسوس داخلي ويؤرقني..

كيف أتصرف وماذا أفعل؟

إن هذا ما لا أدريه..

٧

ما الذي يدور بعقل أبي بالضبط؟!.

هذا ما لا أعلمه ولا أفهمه..

وهل أصابه لوث ما، أو جُن عقله؟!..

أخشى أن يكون هذا ماحدث، وخاصة بعد ما فعله اليوم..

كنا قد أدخلناه لفراشه لينام، وتركته زوجتي بعد أن اطمأنت عليه، وأنه لم يعد بحاجة لشيء ما.. غفونا بعدها ولم نستيقظ إلا على جرس الباب وهو يرن بصورة متلاحقة وملحة مزعجة.. هببت من النوم مسرعًا لأرى ماذا هناك، وعقلي يتخبط في القلق والحيرة..

كان حارس العمارة التي أقطنها، وكان يلهث مضطربًا أمام الباب.. طالبني بتوتر أن ألحق بأبى الذي فوجئ به يزحف على الأرض مغادرًا المصعد، فهرع إليه ليسأله إن كان يبغي شيئًا ما أو مساعدة ما.. وكان ما طلبه منه أبي، أن يستوقف تاكسي من أجله..

لاحظ الحارس العجوز اضطراب أبي ولهفته، وتعجله للابتعاد عن المكان بسرعة، فشكَّ في أمره وتركه أمام المصعد، وهرع نحو شقتنا لإحضاري..

شعرت بالذهول مما أقدم عليه أبي وقد تخيلت مأربه مما فعل.. لا بد أنه يرغب في العودة إلى البيت طبعًا، أو هكذا تخيل أن بإمكانه أن يفعل.. أما كيف كان ينتوي أن يفعل، فهذا ما لا أفهمه، ولا أدري من أين له بالنقود كي يدفع حساب التاكسي، وغيره من وسائل المواصلات كي يعود للبيت بالمنيا..

لم أنتظر المصعد ولم ألتفت إلى أنني مازلت بملابس النوم، وهبطت الطوابق الخمس وثبًا حتى وصلت لباب العمارة منقطع الأنفاس.. كان هناك تاكسي أبيض قد توقف لأبي، فصعد إليه أبي بمساعدة السائق الذي كان حينها بجواره.. وصلني صوت أبي يأمره بالإسراع بالتحرك حين رآني، فصرخت في سائق التاكسي وأنا أعدو نحوه بأقصى سرعتي أن يتوقف..

بالفعل استجاب السائق لندائي، فاندفعت نحو باب السيارة الذي يجلس أبي خلفه وفتحته لاهثًا، وصحت بشيء من الغيظ:

- إنني لا أدري ما الذي يدور بعقلك.. لكن هذا الذي تفعله قد فاق كل التصور.. يبدو انك قد فقدت عقلك.

لكنه بدا ثابت الجنان متماسكا، ولم يأبه لغضبي، وأجابني بثبات:

- اتركني وإبتعد يا ولد.. سوف أعود للبيت الآن.. إنه قراري!.

راح السائق يتابع بدهشة ما يدور بيننا، لكني تجاهلته وقلت لأبي بإصرار، وأنا أمنع يده اليسرى من جذب الباب ليغلقه عليه:

- لن تذهب يا أبي لأي مكان.. إن بيتك هاهنا.. دع عنك رغبتك الغريبة هذه، وهيا نصعد للشقة من فضلك بهدوء.. كفى بحق ما سببته من فضائح حتى الآن.

هنا انفجر غاضبًا.. باكيًا.. منهارًا، وراح يصرخ بكلماته في وجهي:

- أنت لا تفهم أيها الأحمق ولا تريد أن تفهم.. إنني ما أفعل كل هذا إلا لأحميك من نفسك.. أنت لا تفهم أي شيء، ولا تريد أن تعي أي شيء بعنادك هذا.. اتركني الآن لأعود للبيت، أو ستنال غضبي وغضب أجدادك والبيت من قبلهم.. دعني أذهب يا شاكر، وأعود إليه ثانية.. أرجوك أن تفعل يا ولدي.. دعني أعود ولا تعذبني أكثر من هذا.. لقد تحملت الكثير، ولم أعد قادرًا على تحمُّل المزيد.

لكننى لم أستمع إليه وتجاهلت ما يقوله.. أخرجته رغمًا عنه من التاكسي وحملته صاعدًا للأعلى، وقلبي يتمزق مما يعانيه وما يسيطر على عقله من أوهام..

أرقدته على فراشه وربَتُّ على جبهته لأهدئ من روعه، فأشاح بوجهه بعيدًا عنِّي وهو يتمتم ويكرر:

- لست تفهم شيئًا.. لست تفهم شيئًا.

أغلقت باب حجرته عليه، ثم تأكدت من إغلاق باب الشقة بالمفتاح، واحتفظت بالمفتاح في جيبي، كي لا يكرر فعلته ثانية، وعدت لفراشي..

وفكرت حينها أن أذهب به في الغد لطبيبه النفسي ثانية، عسى أن يمده بعقار ما يعيد إليه رشده وصوابه، خشيت ان يفعل أمرا أحمقا إو يوذي نفسه يوما ما.

لكن الصباح حمل إليَّ مفاجاة جديدة..

كان أبي محمومًا وقد راح في غيبوبة عميقة.. أسرعت به إلى المستشفى حيث رقد بالعناية المركزة ثانية.. أجرى الأطباء عليه فحوصاتهم وأخضعوه للتصوير بأشعة إكس والرنين المغناطيسي وغيرها، وفي النهاية أخبرني الطبيب المعالج وهو يهز يديه بحيرة:

- لا جديد هنالك.. الأشعة المقطيعة وكذلك الرنين المغناطيسي يشيران إلى أنه لاشيء قد تغيَّر بمخه غير الجلطة القديمة.. لا جلطة جديدة حدثت أو حتى نزيف بالمخ..

قلت بحيرة، وأنا لا أفهم لماذا راح في غيبوبة جديدة إذًا، ما دام عقله لم يتأذَ ثانية:

- وما سبب تلك الغيبوبة التي يعانيها الأن إذا؟.. إنه لم يدخل في غيبوبة مماثلة حين أصيب بالجلطة في المرة الأولى.

- حتى الآن لا ندري.. لكننا لم ننتهِ من فحوصاتنا بَعد.. سوف نستخلص بعض سائله النخاعي، لنرى إن كان هناك عدوى ما بمخه أو نخاعه الشوكي، وسنرى كذلك كيف حال الأملاح في دمائه.. بعدها ربما اتضح سبب مايعانيه الآن.

- وهل سيفيق ثانية؟

غادر الطبيب الحجرة حينها، وهو يجيب باقتضاب:

- هذا ما لا أعلمه.. هذا أمر يعود لمشيئة الله.

وهرعت أختي هي الأخرى للمستشفى.. أخبرتها بما حدث بالأمس وما جرى اليوم.. كانت منهارة، وراحت تردد أنه كان علينا أن نستجيب له، وأن نعيده للبيت مادامت تلك رغبته.. لم اكن في حال يسمح بالشجار أو الجدال فصمت.

مرَّ الوقت طويلاً بطيئًا ومملاً، وفي المساء أفاق أبي وطلبني للحديث معه بمفردي، فهرعت إليه.. رأيته ضعيفًا كما لم أرَه من قبل، محاطا بعشرات الأسلاك التي تلتصق بجسده، والخراطيم المثبتة في أوعيته الدموية، وكانت هناك هالة ما كئيبة مقبضة تحيط برأسة.. هالة خفية، أشعر بها ولا أراها.. وأيقنت أن والدي يحتضر، بينما بذل هو مجهودًا شاقًا كي يتحدث:

- لقد انتهى أمري يا شاكر.. أعلم هذا وقد اقترب أجَلي.. لهذا فقد حان دورك لترعى البيت.

كنت أرى كيف يعاني ليخرج كلماته، فقلت له مشفقًا وانا أقبّل جبهته ودموعي تغرق وجهي:

- أرجوك يا أبي لا ترهق نفسك بالحديث عن أي شيء واسترِح..

لكنه كان مصرًا، واستمر في حديثه:

- لاوقت للراحة الآن يابني فلا تجهدني أنت واستمع إليَّ.. عد إلى البيت يا شاكر قبل فوات الأوان.. عد وعش به وحينها ستفهم.. لم يعد هناك وقت أمامي كي أخبرك بما اخفيته عنك.. لهذا عدني قبل أن أموت أن تعود للبيت..

ترددت في أن أَعدهُ بالعودة وأنا أعلم يقينًا أنني لن أفعل إلا لبيعه..رأى ترددي على وجهي، فاجتهد ليقول بأنفاس لاهثة، وصدر يعلو ويهبط باضطراب:

- عِدني يابني لأموت مستريحًا.. إنه طلبي الأخير منك.

هنا شعرت أنه لا حاجة لإجهاده أكثر من هذا، فقلت باقتضاب لأريحه:

- أعدك أن أفعل يا أبي.

هنا استرخت ملامحه ولانت، وبان على وجهه بعض الحبور والسرور، ليعود بعدها لغيبوته العميقة ثانية، قبل أن يموت بعدها بساعات.

شعرت بالذهول والحيرة مما حدث.. هل أفاق فقط من أجل أن يجعلني أقطع وعدًا على نفسي أن أعود للبيت ثانية؟!..

كان الأمر غريبًا ومحيِّرًا..

تشاغلت بعدها بدفن أبي.. كان قد أوصى أن يُدفَن مع أجداده في المقابر التي بنوها خلف البيت القديم.. لكنني وقد قررت التخلص من البيت لم أنفِّذ وصيته، وقمت بدفنة بالقبر الذي اشتريته بمقابر البساتين بالقاهرة، من أجلي ومن أجل عائلتي..

لم تحتَج أختي كثيرًا لما فعلته، ومضى الأمر كما خططتُ له.. لقد مات أبي حاملاً معه أوهامه وذكرياته الغامضة وعشقه للبيت إلى قبره.. ولم أنزعج كثيرًا من وعدى له بالعودة للبيت، فقد فعلته فقط لإرضائه..

وبعد أيام شعرت أن الوقت قد حان للنظر في أمر البيت، وقررت العودة إليه.

***

٨

لا أثق بالسماسرة ولا أحب ألاعيبهم التي لا تنتهي والتي لا تستطيع أبدًا الإمساك بها.. من السهل أن يقنعك أحدهم بأن بيتك

هذا لايساوي أكثر مما هو معروض عليك من سعر ضئيل، وأن عليك أن تبيعه على الفور، لأن هذه الفرصة لن تعوض أبدًا.. وفي النهاية تكتشف أنه قد باعك للمشتري مقابل مبلغ ما.

لم أكن أحمقَ لأفعل هذا، ولهذا عدت إلى البيت مرة أخرى.. بالطبع لا أنوي الاستقرار به طويلاً.. سوف أمكث بالمكان بعض الوقت لأعلم عن كثب، مقدار ما وصلت إليه أسعار الأراضي والعقارات الآن في تلك المنطقة المحيطة به، لأري كم يكون ثمنه الحقيقي، لأبيعه بعدها، ثم أرحل عنه للأبد..

لكنني ومنذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها المكان، شعرت برهبة لا أدري مصدرها.. كان هناك هاتف خفى بداخلي يخبرني أن البيت لا يريدني، بل وشعرت أنه يضمر العداء لي.. كانت أحاسيسَ سخيفة وحمقاء لامبرر لها في الواقع.. ربما كانت حكايات أبي وتهديداته عن البيت هي مصدرها.. لكن لأكون صادقًا، فإنني لم أشعر أن هذا التفسير أقنعني.. ما أشعر به يبدو حقيقيًا تمامًا..

ذلك البيت لا يحبني بالفعل، ولا يرغب بوجودي !!!..

قدت سيارتي ببطء متجهًا إلى ممر مبطن بالأحجار يخترق الحديقة، على جانبيه صفان من الشجيرات اليابسة الذابلة، ثم توقفت بالسيارة على بُعِد أمتار من الدرج الذي يرتقي لباب البيت الكبير.

ترجلت من سيارتي، ثم توقفت لبرهة أتامل البيت الذي عدت إليه مرة أخرى. هذه المرة لن يكون أبي داخله. هذه المرة أنا سيده وصاحبه.

لم يتبدل البيت عما كان دائمًا.. مازال محتفظًا بلونه الجيري الأبيض، الذي طالما ذكرني بحجرات المستشفيات الكئيبة..

ومازالت نوافذه البيضاوية الطويلة الشبية بأعين القطط على حالها مخيفة منذرة، كأنما تلقى على القادمين تحذيرًا خفيًا من البيت..

ارتفعت عيناي نحو السطح الخشبي المنحدر ، والذي طالما أجج في نفسي إحساسًا غامضًا بالسقوط.. ومن خلف البيت مازال البرج الحجري الضخم على حاله.. مخيف غامض يحوي من الأسرار الكثير والكثير .. كان برجا قوطي الطراز ، رأيت من ما يشبهه في صور لبعض القلاع الأسكتلندية القديمة..

ظل ذلك البرج علامة استفهام دائمة لخيالي وفضولي، وأنا لا أعلم له فائدة ولا أرى له مدخلاً.. وحين كنت أسال أبي عنه كان يجيبني بغموض:

- إنه يزيد البيت هيبة ورهبة.. إنه أحد أركان البيت.

خضبت الشمس الغاربة من خلفه السماء بحمرة قانية انعكست عليه، فبدا البرج مثقلاً بالكثير من الهواجس والتخوفات.

تنفست بعمق، فشعرت أن الهواء الذي يحيط بي قد اكتسى في هذه اللحظة، برودة غريبة وسكون عجيب.. بدت السماء من فوقه مثقلة بالسحب الرمادية الكئيبة الكثيفة، رغم أن الوقت كان صيفًا..

كان كل ما يدور الآن من حولي كالنذير.. كل شيء يصرخ في وجهي أن أبتعد عن المكان، وأعود أدراجي.. بدا وكأن هناك نوع من النفور قد نمى بيني وبين هذا البيت.. شيء مستحدث لم أشعر به من قبل، حين كنت أحيا بالبيت.. ربما كانت الوحشة، وربما هي رهبة الأماكن المهجورة التي تشع برودة ورهبة في نفوس القادمين إليها..

تجولــت عينــاي فــي جنبــات الحديقــة المهملــة فشــعرت بالوحشــة.. اسـتطالت الأشـجار وتشـابكت أغصـانها اليابسـة بـلا رقيب أو تهذيب، فبدت في الظلام المتسرب بين بقايا ضوء النهار الغارب، كأشباح هائلة ألقت ظلالاً مخيفة لمن ينظرها.. وبين الأشجار المتشابكة ترعرعت وشبت النباتات الطفيلة بحرية من لايخشى الاقتلاع، فصارت كالشجيرات الصغيرة.. وتسلقت بعض الأعشاب الجدران الحجرية، حتى وصلت إلى إطارات النوافذ فكستها بلون طحلبي ،أحضر داكن..

لم أعهد أبدًا هذه الحديقة مهملة هكذا.. ومازلت أذكر أنني حين قدمت إلى هنا منذ عام واصطحبت أبي معي، لم تكن كذلك.. كانت مزدهرة كالجنان.. هل كان عام واحد من الإهمال قادرا على إحداث كل هذا الدمار بها؟!.

تنبهت لطول تجمدي وغرقي في خواطري، فتحركت نحو الباب الخشبي الضخم.. أخرجت من جيبي مفتاحًا نحاسيًا ضخمًا، ينتهي بحلقة نُقِشَت في حوافها كتابات عجيبة منمقة طالما تأملتها بحيرة لأعرف كنهها دون جدوى.. أولجت المفتاح بالثقب الكبير في بطن الباب وأدرته، فصدرت التكة المعتادة قبل أن يُفتَح الباب، فدفعته ودخلت..

كان البيت من الداخل نظيفًا مرتبا وهذا ما أدهشني كثيرًا وألهب حيرني.. البيت ظل مهجورًا لعام كامل، ولم يكن هناك من يعتني به، ولهذا توقعت أن أرى به طبقات كثيفة من الغبار تغطي كل جنباته وربما الكثير من أعشاش العنكبوت و الزواحف أو القوارض والخفافيش في جوانبه وأركانه.. هذه هي سيماء الأماكن المهجورة كما أعلم وهذا ما كان على البيت أن يكون عليه.

لكن المكان بدا نظيفًا ومرتبًا كما كان دومًا، وكأنما لم نفارقه قط.. تجاهلت دهشتي، وأوعزت هذا إلى إحكام إغلاق بابه

ونوافذه، والتي ربما منعت الغبار والحشرات من التسلل إليـه.. لـم يكن بالطبع تفسيرًا منطقيًا لكنني لا أملك غيره فقبلت بـه.

حملت حقيبتي التي جلبت فيها بعض ملابسي وأغراضي التـي تكفينى للحياة هنا لبضع أيام، واتجهت نحو الدرج الخشبي الكـائن في قلب الصالة، وصعدت للطابق العلوى حيث حجرتي القديمة..

كانت هي الحجرة قبل الأخيرة في الرواق الطويل بـالأعلى الـذي يفصل بين الحجرات.. التقطتُ نفسًا طويلاً وأنـا أقف أمـام البـاب بإثارة، ثم أدرت مقبض باباها ببطء، وفتحت الباب..

كانت حجرتي مرتبة ونظيفة هي الأخرى كالبيت كله.. لم أتنفس فيها هواء راكدًا، ولم أجد على أثاثها ذَرَّة غبار واحدة.. كانـت نظيفة كيوم تركتها حين غادرت المنزل للأبد منذ أعوام بعيدة.. تعلقت عينـاي بـالفراش النحاسي العتيق ذي الأعمدة الطويلـة.. أعوام كثيرة مضت منذ رقدت على هذا الفراش آخر مرة.. مسحت بعينيـيّ جنبات الحجرة فتداعت لرأسي عشرات الـذكريات التـي عايشتها في هذه الحجرة..

في هذة الخزانة المنحوتة بالحائط، كنت اختبئ من أختي حين نلعب سويًّا، ومن أمي حين تغضب وتبغ معاقبتي..

وفي هذا الركن المجاور للباب تبولت ذات مرة حين أفقت من نومي ذات مساء بارد، شاعرًا بمثانتي تكاد أن تنفجر، وخوف طفولي مبهم يدفعني ألا أترك الحجرة لأذهب إلى الحمَّام، فاخترت أن أفرغها في هذا الركن.. من حُسن حظي أن هذا الأمر مـرَّ بسلام دون أن يشعر به أحد..

انتقلت عينـاي إلى القائم المعدني، الخلفي للفراش والمنـبعج قليلاً.. هنا قد اصطدمت رأسي ذات مرة، فتفجر منها الدم غزيرًا

وأغرق جبهتي ووجهي.. صرخت أمي حين رأت الجرح الكبير الغائر، وهرولت بي نحو الطبيب فزعة متوقعة الأسوأ..

لكن الطبيب رأى شيئًا مختلفًا.. كان الجرح صغيرًا لا يعدو أن يكون خدشًا صغيرًا، لم يحتَج إلا لغيار طبي صغير.. مازلت أذكر كيف كانت أمي مذهولة حين فحصت بنفسها الجرح مرة أخرى لتلاحظ أنه ليس الجرح العميق الذي رأته في المرة الأولى.. بدا مختلفًا تمامًا وقد التئم تقريبًا..

لم تخبر الطبيب بهذا لكنها أخبرت أبي حين عادت للبيت.. أذكر يومها أن أبي قال، وهو يحتضنني ويربت على رأسي بحنان، وعيناه تجوبان أركان البيت بامتنانٍ غريبٍ:

- إنه البيت ياحبيبتي يحمي قاطنيه، فلا تقلقي.. إنه البيت !!!..

لم أفهم ماذا عناه أبي يومها، ولم أعِ كيف يحمينا البيت..

هنا جالت في رأسي ذكرى أخرى طالما حيرتني.. فلم يحدث أبدًا أن مرض أحدنا يومًا ما في هذا البيت.. لم أرَى جدي يومًا متوعكًا، ولم تصَب أختي أبداً بنزلة معوية ككل الأطفال، ولا أذكر أنني ذهبت لأي طبيب إلا تلك المرة الوحيدة التي شجت فيها رأسي..

كان أول من يمرض في هذا البيت هو أبي، حين أصيب بتلك الجلطة اللعينة، التي أودت به للتهلكة في النهاية.. كان الأمر غريبًا طالما أشعرني بالعجب والحيرة، كان سرًا آخر من أسرار البيت !!!.

ينهكني في هذه اللحظة التعب والإجهاد بعد هذه المسافة الطويلة التي قطعتها بسيارتي من القاهرة إلى هنا، عبر طرق لا

تصلح للسير عليها، لذا غيرت ملاءات الفراش بإخرى جديدة وبدلت ملابسي ثم رقدت على فراشي، وغفوت على الفور..

٨

اختلط صدى رنين الهاتف، بأصداء الطبول التي تدق داخل رأسي في حلم غريب، واستغرق الأمر منِّي لحظات حتى أدرك أيهما الحقيقي وأيهما الحلم.. كان محمولي يرن بإلحاح، وراح ضوء شاشته يومض في الظلام..

مددت يدي نحوه وقربته من أذني . . كانت زوجتي وراحت تتحدث بصوت يقتله القلِق:

ـ رباه. أين كنت كل هذا؟.. لقد أقلقتني عليك حتى الموت.. إنها المرة الخامسة التي أتصل فيها بك ولا تجيب.

تثاءبت معتدلاً على الفراش، قبل أن أجيبها بصوت ناعس:

ـ يبدو أنني كنت نائما كالموتى، ولهذا لم أشعر بالرنين إلا الآن.. آعتذر أني أقلقتك.

- وماذا عن الأمس؟ ..لماذا لم تتصل بي حين وصلت إلى البيت كما اتفقنا؟

- أعتذر عن هذا أيضًا.. لقد تاه هذا عن بالي تمامًا.. الطريق كان مرهِقًا للغاية، حتى إنه هشَّم عظامي تمامًا.. وحين وصلت البيت كدت أسقط مغشيا علي إرهاقا، فنمت دون أعي أي شيء.

هنا تنهدت بارتياح، وران الصمت بيننا لبعض الوقت.. تثاءبت ثانية ورحت أ حدق في ظلام الحجرة، قبل أن تكمل هي بهدوء هذه المرة:

- وماذا عن البيت؟ ..لابد أنه في أسوأ حال .. إننى أشفق عليك حقًا مما عليك أن تقوم به ليعود صالحًا للسكنى كما كان.. أظن أن عليك أن تبحث عمن ينظفه من أجلك.

تذكرت المكان المرتب والنظيف تمامًا، فابتسمت، وأجبتها:

- خمني كيف وجدته؟ .. لن تصدقي ما سوف أخبرك به.. إنه نظيف إلى أقصى حد ولا يحتاج أي عناية أو تنظيف.. هل تتخيلي أني لم أصادف به ذرة غبار واحدة.

- أنت تمزح !!!.. أخبرتني أنه لا أحد هناك ليعتني بالبيت، بعد أن غادره أبوك.. فكيف يكون نظيفاً بعد كل هذا الزمن الطويل.

تثاءبت بكسل مرة أخرى، وأجبتها بلا اكتراث، وعيناى ما زالتا تجوبان ظلام الغرفة وقد بدا أثاثها كالأشباح الساكنة، مع تلك الإضاءة الضئيلة التي يرسلها القمر عبر النافذة:

- ربما حدث هذا لأن البيت كله محكم الغلق.. لكن، دعك من هذا الآن.. ما يهمنا هو أن البيت يصلح للسكنى بصورة مُرضية

تمامًا، ولايحتاج لأي عناية أو إصلاح، لست بحاجة لإنفاق أي أموال عليه.. إنه الشيء المشرق في هذا الأمر.

- لا أدري ماذا أقول؟.. أعتقد أن الأمر رائع بالفعل.. لكن أخبرني، متى تنوى أن تعود؟

- لا أدري حتى الآن ياحبيبتي! .. سوف أمكث هنا حتى أنتهي من بيعه، لكني لن أتعجل فِعْل هذا.. البيت ضخم، ولابد أن قيمته قد ارتفعت كثيرًا هذة الأيام، ولا أريد أن يشعر أحد ما هنا أني أريد بيعه بسرعة، فيبخسون ثمنه.

عاد الصمت ليغرقنا مرة أخرى، ووصلتني أنفاسها المعبقة بقلقها عليَّ، وهي التي لم تعهد من قبل غيابي عنها ليوم واحد.. تركتها لأفكارها ورحت أدلك جبهتي، بضغطات قوية بأطراف أنامل يدي الحرة، ليصفو عقلي.. بعدها تذكرت أنني لم أطمئن على الأطفال، فسألتها عنهما:

- وكيف حال عبدالحميد ورامي؟ هل سألا عني؟

- إنهما بخير.. لقد سألا عنك مرارًا، ثم احتجَّا كثيرًا حين أخبرتهما أنك بالبيت لتبيعه.. كانا يرغبان في رؤية البيت قبل بيعه.. لكن دعك من هذا، واهتم أنت بنفسك، ولاتقلق بشأننا. إننا جميعا على ما يرام.

- أتوق إليهما بالفعل.. أخبريهما أنني سأعود إليهما سريعًا محملاً بالكثير من الألعاب، أخبري عبدالحميد أنني سوف أجلب له "الأي باد" الذي طلبه منى، وأخبري رامي أنني سوف أجلب له الدراجة التي يتمناها.

تنهدت ثانية، ولم تعقب على ماذكرته، ثم غمغمت بصوت واهن:

ـ عد إلينا سالمًا يا شاكر، وفى أقرب وقت أرجوك.. اتصل بي صباحاً ومساءً في كل يوم.. لا أريد أن أقلق عليك هكذا ثانية..

ـ أعدك أن أتصل كل وقت.. اهتمي ياحبيبتى بنفسك وقبلي الأطفال من أجلي، وأبلغيهم سلامى.. إلى اللقاء.

أنهيت الاتصال بعدها، وغادرت الفراش.. تمطيت وتثاءبت بكسل مرة أخيرة، ثم أشعلت المصباح الكهربائي، وعدت أتفقد الحجرة بأثاثها وجدرانهامجترًا ذكرياتي بها.. ولاحت ابتسامة خفيفة على شفتي وأنا أستعيد مرة أخرى بعض تلك الذكريات في تلك الحجرة..

اتجهتُ إلى المرآة الموجودة على أحد أبواب خزانة ملابسي.. مازالت مصقولة ولامعة كما كانت.. كانت كذلك نظيفة بلا ذَرَّة غبار واحدة تلوثها.. إنها مرآتي التي شهدت كل تحولاتي ونموي. لو كانت لها ذاكرة لأرتني الآن صورتي بالسروال القصير وأنا أخطو خطواتى الأولى، وأمي بجواري تصفق بيديها مشجعة إياى أن أزيد من عدد خطواتي، وربما كانت قد احتفظت بصورتي حين تحول الزغب الرفيع أسفل أنفي إلى شعيرات حقيقية منذرة ببدء البلوغ.. نعم لو امتلكت المرايا الذاكرة لما فاتنا أمر مرَّ بنا يومًا ما.

تأملت فيها وجهي المرهق.. وشعرت ببعض الدهشة وأنا ألحظ للمرة الأولى كم صرت أشبه أبي؛ نفس الأنف المستقيم الحاد والذقن الدقيقة.. نفس العيون العسلية العميقة.. الصلعة اللامعة الزاحفة على مقدمة رأسي هي نفسها كانت برأس أبي.. بل ونفس الشعيرات البيضاء على جانبيّ رأسي كانت لديه..

لقد صرت الآن أشبه أبي تمامًا.. شعرت بالكثير من الدهشة وتساءلت، كيف لم ألحظ هذا الأمر من قبل..

ظللت أراقب ملامحي المنعكسة على سطح المرآة لدقائق أخرى، ورحت أمرر أصابعي على بشرتي ووجهي، كأنما أستيقن بأناملي ما أراه بمقلتي، قبل أن أتجه إلى النافذة لأفتح زجاجها، كي أسمح لنسمات الهواء الليلية بالدخول لتجديد هواء الحجرة.. أزحت الستائر الرمادية التي لم تتغير أبدًا، لأرى الحديقة التي صبغتها أشعة الشمس الغاربة الآن بحمرة قانية..

بدت الحديقة أمامي جميلة وارفة الظلال، واللون العشبي الأخضر ينتشر في أرجائها، تتخللها الكثير من أشجار النخيل المثمرة وعروش الكروم المثقلة بعناقيد العنب.. إنها نفس الحديقة المزدهرة التي طالما لعبت ومرحت في جنباتها الرائعة..

شعرت بالنشوة للنسمات الباردة التي ضربت وجهي فأنعشته.. وعادت إلى كل ذكريات الأيام الخوالي التي عشتها في هذا البيت فشعرت كأنني لم أغادره أبدًا.. ظلت عيناي معلَّقة بالحديقة الرائعة حتى انتبهت بفزع إلى أمرين غريبين..

فحين أتيت كانت الشمس على وشك الغروب تمامًا كما أراها الآن.. إنني قد نمت لساعات طويلة كما أعتقد،لكنها حتما لن تصل للنوم يوما كاملا، فكيف ظلت الشمس على حالها ولم تغرب..

الأمر المخيف حقًا كان الحديقة الخضراء التي أراها الآن، لقد كانت قاحلة جدباء حين أتيت.. هذا ما رأته عيناي حينها، بل وقد شعرت بالأسى عليها حينها.. فكيف تبدل حالها تماما في تلك الساعات القليلة التي نمت فيها؟

تسارعت دقات قلبي فزعًا مما أراه وراح أناملي ترتعش..

كيف حدث هذا؟!!!..

بدأ الأمر كالسحر .. لكنه سحر مخيف لو شئتَ رأيي.

١٠

لا أدري ما الذي يدور حولي الآن.. فالبيت بدا وكأنه قد عاد للحياة مرة أخرى..

خرجت من حجرتي ولم أخرج بعد من حيرتي وتوتري، بعد ما حدث للحديقة.. للحظات شعرت أنني أحلم وأن كل هذا وهم غير حقيقي. . لكن كل لحظة تمر علي بالبيت تنفي أن يكون الأمر حلما..

أشعلت أضواء البيت كله، فبدا دافئًا وجميلاً مريحًا.. يقولون إن البيوت المجهورة تتميز ببرودة تبعث الرهبة في القلوب، لكني لم أشعر بتلك البرودة أو الرهبة.. بل رحت أشعر بالدفء والراحة والسكينة..

إنه نفس الطقس الخريفي اللطيف، والذي امتاز به البيت دومًا ولم يتغير أبدًا لا صيفاً أو شتاءً.. كنت أراه أعجوبة من قبل.. كان الأمر يشبه ربيعًا دائمًا داخل البيت، ولم نعرف يومًا بداخله جوًا متقلبًا كما كان يحدث خارجه.

اتجهت إلى الحمَّام.. كان نظيفًا منعشًا مشبعً برائحة طيبة.. الصنابير كلها سليمة، والصنابير مازالت تعمل بكفاءة.. اغتسلت وتوضأت، ثم خرجت متجهًا للمطبخ، لأعد لنفسي كوبًا من الشاي..

المطبخ هو الآخر كان نظيفًا ومرتبًا.. التقطت إناءً لغلي الماء، وضعته على الموقد متسائلاً إن كان به وقود أم أنه قد فرغ منه.. أشعلت عود ثقاب وقربته منه فاشتعل على الفور.. رحت أرمق الماء الذي أنتظر غليانه بشرود، وأنا أفكر في بيت مهجور منذ أكثر من عام ومازال كما هو، نظيفًا ومرتبًا ودافئًا، بلا أعطال أو تلف !!.

هنا لاح لذهني خاطر مفزع، أو لنقل إجابة مرعبة لتساؤلي..

أيكون أحد ما قد لاحظ أن البيت مهجورٌ فاتخذه مأوىً له؟.. كان احتمالاً قائمًا، فعاودني القلق.. لو كان صحيحا هذا الاحتمال، فهو يفسر الحالة الجيدة التي يبدو عليها البيت الآن.. وارتجف قلبي خشية أن أكون مصيبا..

لا أدري من هذا الشخص الذي قد يكون اتخذ البيت مأوى له.. هل هو متشرد يبحث عن مأوى له، فوجد ضالته في البيت؟ .. أم يكون مجرم هارب من العدالة يبحث عن مكان يختبئ فيه؟ .. أم تراه لصًا قرر الاستيلاء على المكان بأكمله مادام مهجورًا؟!..

في النهاية، ومهما كان هذا الشخص، فعليَّ أن أواجهه إن تطلب الأمر، وأن أجبره على ترك المكان، حتى لو اضطررت لطلب الشرطة..

أطفات الموقد على الماء قبل أن يغلي، وحملت بيدي أحد القوائم الخشبية الموجودة بالمطبخ متخذًا إياها كسلاح لي.. وبتحفز خرجت لأفتش المكان كله..

استغرق الأمر ثلث الساعة لأنتهي من تفتيش البيت كله.. لكني لم أجد أحدًا، كما لم أجد أي أثر يدل على أن هناك من يعيش بالبيت..

استعدت الطمأنينة، فعدت للمطبخ وأعددت مرة أخرى الشاي، ثم حملته واتجهت للحديقة لأشربه فيها.. كان هناك مقعداً حجري، تظلله تعريشة كروم خشبيه، اعتدت فيما مضى أن أجلس تحتها، فاتجهت إليه.. ورحت أفكر وأنا أرتشف الشاي ببطء، كيف مضى عمر كامل لم أنعم فيه بمثل هذه الجلسة..

راحت عيناي تجوبان الحديقة، والتي تبدل حالها، وازدهرت أشجارها فأورقت وأثمرت.. وتهذبت حشائشها فاستعادت

خضرتها وأينعت.. بدا الأمر عجائبيًا كالسحر،وعجز عقلي عن العثور على تفسيرً لما جرى بالحديقة في تلك الساعات القليلة..

لكن هناك جانبًا آخر مشرقا، في تلك المعجزة التي حدثت للحديقة.. فهذه الحديقة الرائعة، سترفع من ثمن البيت كثيرًا.. فبيت بحديقة غنَّاء' خير من بيت بحديقة جرداء قاحلة.. وابتسمت برضا، ثم أرسلت نظري إلى القرية التي تلوح أضواءها من بعيد مبددة الكثير من ظلام الليل الذي يغمرها..

راودتتني الرغبة أن أهبط إليها، لأرى كيف صارت بعد كل هذه الأعوام التي فارقتها فيها.. قرتت زيارتها الآن فليس هناك ما أفعله هذه الليلة هنا.

عدت للبيت ثانية، وبدلت ملابسي ثم اتخذت الطريق الترابي المؤدى إليها.

١١

مرت كل تلك الأعوام الطويلة، وظل عم عثمان كما هو، لم يتغير.. مازال جالسًا على مقعده البالي المصنوع من الخوص، أمام عشته المصنوعة من الخوص والقش كذلك، والتي عاش

فيها عمره بأكمله.. نظرت إلى وجهه وأنا أقترب منه، فلم أرَ تغيُّرًا أو تبدّلاً على قسماته.. مازال هو العجوز نفسه، الذي امتلأ وجهه بالتجاعيد، والتي تشي بعمر طويل من المعاناة والقسوة..

فيما مضى كان المكان مقهىً صغيرًا يديره.. كان يقدم فيه الشاي والقهوة والشيشة وبعض الممنوعات كالبيرة والحشيش والأفيون، لزواره من الفلاحين والأُجراء الذين يعملون في فلاحة الأرض.. لكنه حين تقدمت به السن ووهنت قواه، ولم يعد قادرًا على إدارة المكان، كف عن جعله مقهى، وصار يكتفي بالعيش على الصدقات التي يجود عليه بها سكان القرية، وكان أبي أحدهم.. لم يتزوج الرجل أبدًا، وإن كنت أعلم أنه يستضيف بعضهن في عشته من حين لآخر..

كان من الغريب أن الرجل مازال على قيد الحياة بعد كل هذه الأعوام.. لابد أنه قد تجاوز المائة بأعوام كثيرة الآن.. اتجهت إليه باشتياق حقيقي لأرى كيف صار، وهل مازال يذكرني أم لا.. وصلت إليه، وحييته بحرارة حقيقية:

ـ كيف حالك يا عم عثمان؟ .. أرى أنك مازلت حيًا ترزق أيها العجوز.. يبدو أنه مازال مقدرا لي أن أراك ثانية.

انتبه إليَّ، فتَغضّنت تجاعيد وجهه، وهو يحدق نحوى بعينين التهمتهما المياه البيضاء، قبل أن تنفرج خلجاته عن ترحاب حقيقي، وينهض من فوره، وهو يقول بسعادة:

ـ إنني على خير حال بفضل كرمك وخيرك يا عبدالحميد بك.. مرحبا بك يا سيدي.. مرحبا بك.

رمقته بتعجب وأنا أراه يظنني أبي الراحل، بل ويناديني باسمه.. يالقسوة الأيام والليالي التي تذهب بإدراك المرء حين يشيخ عقله، فيصير عاجزًا عن التمييز!!.. جلست على صخرة

ضـخمة بجـوار مقعـده، وقرَّبـت وجهـي منــه، عسـى أن يرانــى بصورة أوضح ليميزني، وصحت بصوتٍ مرتفع ليسمعني:

ـ أنـا لسـت عبدالحميـد بـك يـا عـم محفـوظ..إنني ابنـه شـاكر، ألا تذكرنـي؟

قطب جبينـه فجأة، وعينـاه تجوبان وجهي بدهشة حقيقيـة حاملـة الكثيـر مـن التشـكك، وفغـر فـاه بحيـرة، فبانـت أسـنانه السـوداء المتآكلة النخرة، قبل أن يقول ملوّحًا بكفه باعتراض:

ـ كف عن مزاحك يـا عبدالحميد بك ولا تسـخر منـي.. إننـي لـم أُصَب بالعمى بعد لأجهلك.. أنت عبدالحميد بك وليس أحد آخر.

رمقتـه بإشـفاق، وقـد بـدا لـي أنـه يعـاني مـن ضـعفٍ شـديد فـي ذاكرتـه، وخلـل فـي قدرتـه علـى التميـز.. إنهـا الشـيخوخة والعمـر المديد.. لابد أنهما قد ذهبا بإدراكـه. . وقلت لـه متغاضيًا عن تلـك النقطة، وأنا أتطلع إلى الأراضي الزراعيـة الممتلئـة بـأعواد الـذرة السامقة، والتي سربلها ظلام الليل الآن، فصارت موحشة للغاية:

ـ مضـى زمـن طويـل لـم أرَك فيـه يارجـل.. أخبرنـي كيـف تعيش الآن؟ ..

لكني فوجئت بة يقول بحدة:

ـ أي زمـن هـذا الـذي مضـى ياعبدالحميد بك؟ ..لقد زرتنـي هـذا الصباح، وأعطيتني طعامًا كثيرًا وبعض المال كما تفعل كـل مـرة.. أرجو أن تكف عن الاستهزاء بي يا عبدالحميد بك.. إننـي لم أصُب بالخرف بعد.

بـدا وجهـه ممتعضًـا بشـدة.. رأيـت أن علـي ألا أرهقـه، بمحاولـة إفهامـه أننـي لسـت أبـي.. لـذا تركتـه وتابعـت سـيري نحـو القريـة

متخذًا الطريق الضيق بين الأراضي الزراعية، والذي ظل غير ممهد كما عهدته دائمًا من قبل.. وبعد دقائق عشر من السير في الظلام بلغت القرية..

بدت البيوت الطينية كما كانت منذ قرون.. القرية كلها بدت كما تركتها منذ أعوام، لم يتغير بها شيء، رغم أن العالم بأكمله خارجها قد تغير.. قابلت بعض الوجوه التي مازالت عالقة بذاكرتي وإن كنت قد نسيت أصحابها.. رحت أحييهم وأنا بالكاد أتذكر أسماءهم وكانوا يردون تحيتي بدعوة ملحة لشرب الشاي ببيوتهم..

ومرة أخرى رحت أتوهم شيئًا عجيبًا.. أشعر أن كل من أقابلهم إما كانوا أصغر عمرًا أو لم يتقدم بهم العمر.. لابد أنه الظلام والظلال والإرهاق الذي أعانيه، هو ما ألقى بتلك الأفكار الغريبة نحو عقلي..

إنعطفت من الطريق الرئيسي نحو حارة جانبية حيث بيت العمدة، الذي لابد أنه قد توفى الآن، ولابد أن ابنه الأكبر إبراهيم هو من خلفه في منصبه كما هو معتاد.. رأيته يجلس على الأريكة الخشبية العتيقة التي طالما رأيت أباه جالسا عليها منذ أعوام، وقد أحاط بمجلسة بعض حاشيته، أمامهم طاولة خشبية اصطفت عليها أكواب الشاي، وبجوار الجدار رقد موقد ملئ بالفحم المشتعل، يحوي إناءً نحاسيً، اسودت حوافه، والشاي الأسود يغلي في جوفه بلا انقطاع.

مازال داره كما اعتدت أن أراها دائمًا من قبل، ولم يتغير بها شيء.. مازالت الخربشات التي على الحوائط كما هي، ومازالت السفينة الخضراء المرسومة على الحائط، والتي سكنت في قلبها صورة بدائية للكعبة كما هي بمكانها في صدر البيت.. بدا المكان وكأنما قد توقف الزمن عندة ولم يؤثر فيه البتة.. لمحني الرجل قادمًا من بعيد، فأسرع بالنهوض، واتجه نحوي مرحبًا بحفاوة:

- أهلا بك ياعبدالحميد بك.. زيارة عزيزة.. لقد شرفتني بقدومك؟.

وتجمدت بمكاني مذهولا.. لماذا يناديني هو الآخر بعبدالحميد بك؟.. هل صرت أشبه أبي لهذه الدرجة ؟!.

لكن، حتى لو كان هذا صحيحا، فلابد أن ترتسم على وجه أبي لو كان موجودًا علامات التقدم في العمر عنِّي. . أيكون الظلام هو من أوحى له بهذا؟.. ربما!.. طرحت الأمر جانبًا، وأنا أصافحه بود وأقول:

- لابد أنك إبراهيم ابن الحاج عبدالعظيم..أليس كذلك؟.

رمقني للحظة بحيرة، وملامحه تختلج بدهشة حقيقية، وانتقلت عيناه بيني وبين ضيوفه الذين نظروا إلي بدهشة مماثلة، قبل أن يطلق ضحكة صاخبة، وهو يضغط على قبضتي التي مازلت بين أصابعه بقوة أكبر، ويقول:

- لاتكف أبدًا عن المزاح ياعبدالحميد بك.. إبراهيم من يارجل؟.. الولد مازال صغيرًا ليحل محلي.. كم أوحشتنا دعابتك يا رجل.

وبدأ قلبي في الارتعاش، وأنا أرى كل هذا الجنون من حولي.. رحت أرمقه بقلق وهناك بداخلي من يوسوس في صدري، أنه هو نفسه الحاج عبدالعظيم وليس ابنه.. مهما كانت درجة التشابه في الملامح بين الاثنين، فلن تصل أبدًا لتلك الدرجة من التماثل.. ورمقت عينه اليسرى المعطوبة جراء مشاجرة قديمه، والتي طالما هالني شكلها المريع، وميزتُه بها من قبل.. من الصعب أن أتخيل أن أن يصاب إبراهيم هو الآخر بإصابة مماثلة لأبيه، في نفس العين وبنفس الدرجة من التشوّه..

ولابد أنه قد لاحظ شحوبي واضطرابي، ولهذا قال لي وهو يتفقد وجهي بقلق:

- ماذا بك يا عبدالحميد بك؟.. هل أنت مريض؟ .. لا أدري لماذا تبدو شاحبًا هكذا.. هل أبعث من يأتي بالدكتور كمال من أجلك؟.

ألقيت بجسدي على أقرب أريكة بجواري، وغمغت وأنا أشعر بالدوار العنيف يعتصر عقلي، وجفاف عنيف يحرق حلقي:

- لا داع لهذا.. إنه الإرهاق فحسب.. أيمكنني الحصول على كوب ماء من فضلك؟

تفحصني بحيرة لبرهة، قبل أن يتجه للمنزل لإحضار الماء لي.. وعاد عقلي مرة أخرى يفكر بجنون في كل ما حدث لي منذ عدت للبيت..

البيت النظيف.. الحديقة التي عادت وارفة.. عم عثمان الذي مازال كما هو ويظنني أبي.. الحاج عبدالعظيم الذي مازال على قيد الحياة وابنه إبراهيم الذي لم يكبر.. بدا الأمر وكأنما عدت إلى الماضي.. إلى زمن مضى منذ ثلاثين عامًا.. كان هذا جنونيًا تمامًا وغير معقول.. لابد أنني أحلم وحتمًا سأستيقظ بعد قليل لاهثًا، لأفكر في مغزى هذا الحلم الغريب..

إنه حلم بالتأكيد..

نعم حلم عجيب، ولا يمكن أن يكون غير ذلك..

١٢

ماذا يحدث لعقلي؟.. وهل أصابني الجنون؟.. أم أن العالم من حولي قد جُنَّ بأكمله؟! .

لاأظن أنني أحلم بكل ما يمر بي الآن.. فلا يوجد أبدا حلم بمثل هذه الرتابة والإصرار..

فقط أردت أن أفهم، لماذا يصر الجميع على أنني عبدالحميد بك، والذي هو والدي الراحل؟
تركت العمدة الذي مازال يؤكد أنه هو نفسه الحاج عبد العظيم، والذى ظننت أنه ابنه إبراهيم..
لا أذكر الكثير مما قلته أو ما قاله لي.. لكنني أتذكر ماحدث حين أخبرته برغبتي في بيع البيت، وطالبته أن يبحث عن مشترٍ ما له.. بدا على وجهه تعبير غريب للغاية لم أرَه من قبل.. مزيج من الدهشة والخوف وعدم التصديق.. لا أدري كيف أصف تلك التحولات التي طرأت على خلجاتة حينها.. تعبيرات تراها وتعيها، وتعجز عن وصفها مهما أوتيت من الفصاحة..

وفي النهاية، غمغم متشككًا وعينه السليمة ترتجف باستنكار، كأنما لم يسمعني جيدًا:

ـ تبيع ماذا يا عبدالحميد بك؟

ـ أبيع البيت يا حاج إبراهيم.. وأريد أن أجد مشتريًا مناسبًا للبيت.

- أي بيت الذي تريد بيعه؟.. معذره يا عبدالحميد بك في حيرتي هذه، فلست أفهم ماتعنيه.

ماهذا الذي لايفهمه.. شعرت أنني على وشك الانفجار ثائرا في وجهه.. أنا أريد بَيْع بيتي الذي ورثته عن أبي وصرت مالكه، فلماذا ينظر إليَّ هكذا، كأنما أخبره أنني أريد أن أفعل أمرًا عجيبًا منكرًا.. وبعد حين من الصمت والحيرة والدهشة، قلت له متمالكًا أعصابي لأقصى درجة:

- إنني أخبرنك أنني أريد بيع البيت الذي أملكه هاهنا ياحاج عبدالعظيم.. لا أدري حقا ما الغريب في هذا؟

هنا بدا الانزعاج على وجهه وقد تيقن من أنه قد فهم ما أقصد، فصاح ملوحًا بذراعة في وجهي باستنكار:

- ما هذا الذي تقوله يا عبدالحميد بك.. أنت تعلم أن هذا مستحيل تمامًا.. كلنا يعلم هذا.. لا أنت ستبيعه ولا البيت سيسمح بشيء كهذا، ولا أحد من أي مكان كان، سيجرؤ على التقدم لشراء البيت.. إنه بيتكم منذ الأزل، وسيظل دومًا بيتكم أنتم فقط، ولن يقطنه أحد غيركم.. ظننتك تدرك هذا جيدًا.. لا أعلم مالذي دعاك للتفكير في هذا الأمر العجيب.

في تلك اللحظة شعرت أنني قد اكتفيت من كل هذا الخبل والهراء، الذي أراه وأعيشه في تلك القرية اللعينة، فانفجرت في غضب حقيقي في وجهه، دون مراعاة لأنني في بيت الرجل، وصرخت فيه:

- أنا لا أدرك شيئًا ولا أفهم ما الذي تقوله.. كل ما أعلمه، أنني لم أعد أرغب في هذا البيت، وأريد أن أنتفع بثمنه، ولا أدري ما الغريب في هذا، ولماذا تنظر إليَّ كما لو كنت مجنونًا يتحدث؟.

وظل الرجل وضيوفه يرمقونني بذهول حقيقي.. ذهول أعجزهم عن مجادلتي بعدها فلم يتحدثوا.. لكننى كنت حانقًا بحق.. وتذكرت حينها أمرًا آخر فاستكملت ثورتي عليهم واعتراضي قائلا:

- كما إنني أريد أن أخبرك بشيء آخر.. إنني لست عبدالحميد.. إنني ابنه شاكر.. وأنا متاكد أنك كذلك لست الحاج عبد العظيم.. ربما كنت إبراهيم ابنه أو ربما أي ابن آخر له.. لكني لا أدري لماذا تنكر هذا، وما هو غرضك مما تدعيه؟.. لكني هنا لابيع البيت وسوف أبيعه، ولن يقف أمامي أحد ما في رغبتي هذه. سوف أبيع البيت رغم أنف الجميع.

تراجع الرجل بجسده مصعوقًا مما أقوله.. عيناه زائغتان في ذهولٍ حقيقي وفكه السفلي يتدلى في غير تصديق..

ولم أرغب أن يستمر الأمر أكثر من ذلك، فغادرته بغضب، وطوال الطريق رحت أفكر في ما يدور من حولي من أمور غير معقولة..

لست مجنونًا أبداً.. أنا متاكد من هذا.. وربما كانوا هم المجانين الحقيقين؟

لكن هذا أيضًا أحتمال لا يعقل.. ربما كان الأمر لعبة محكمة منهم لإثارة جنوني وخوفي ودفعي لبيع البيت بسعر بخس.. ربما كان هذا الاحتمال هو أكثر الاحتمالات المنطقية التي تفسر ما يحدث..

ولابد أنهم علموا بطريقة ما أنني لم أعد راغبا في إقتناء البيت، بل وربما كان أبي هو من أخبرهم بهذا بنفسه قبل ذلك، وبالتالى فقد توقعوا أن أشرع في بيع البيت فور وفاة أبي، وربما أعدّوا العدة لتشكيكي في قواي العقلية، لتشتيتي ودفعي للتخلص من البيت وأوهامه بأي ثمن يعرض عليَّ حينها..

لكنني لن أحقق لهم مأربهم الخبيث هذا حتمًا.. إنني أقوى مما يظنون.

عدت للبيت والغضب يغلي بداخلي كالمرجل. . لست الشخص الضعيف الذي يظنونه ولن يدفعوني بأفعالهم هذه للجنون أو لبيع البيت بثمن لا أرضاه.. فكرت في أن أصنع لافتة ضخمة وأضعها في مكان بارز أمام البيت معلنًا فيها رغبتي في بيع البيت لأعلى سعر، بل ورحت أفكر في نشر إعلان عنه بجريدة ما.. لن أتسرع في بيعه أبدًا إلا لو شعرت بأن السعر المعروض يكافئ قيمته الحقيقة..

هؤلاء الفلاحون لن ينجحوا أبدًا في الضحك عليَّ، وسوف أريهم أنني لست ابن المدينة الساذج الذي يتخيلونه.

وعاودني شعوري بالإرتياح بعدها، فهدأت خطواتى المهرولة، وهدأت أنفاسى الاهثة المتوترة.. بل ورحت أستمتع بالهواء النقى الندى المعبق برائحة الأراضى الزراعية التي أسير فيها..

وصلت إلى البيت.. ومن الوهلة الأولى بدت مختلفاً..

وتأكدت من هذا حين دخلت الحديقة.. مرة أخرى اختفت الحديقة الخضراء الوارفة، وحَّلت مكانها الأرض الجرداء الميتة والأشجار الذابلة اليابسة.. إختفي كل أثر للحياة بها وعاد الموت ليعبث بها.

أرمق البيت بذعر، وأشعر بالتيه.. وللحظة أحسست أن البيت يسخر مني بما يفعله..

يمتزج الخوف بداخلي بالإرتباك ولا أدري إن كان عليَّ أن أغادر هذا البيت بألاعيبه العينة تلك، والتي لا أفهما، أم أبقى به مغالِبًا رهبتي وحيرتي منه حتى أنتهي من بيعه؟..

وظللـت أرتجـف بمكـاني طـويلا أمـام الحديقـة القاحلـة.. ماهـذا العبث الذي يحدث في هذا البيت؟! .

١٢

تغيرت الحديقة وعادت لحالتها الأولى لكن البيت من الداخل ظل على حاله نظيفاً مرتباً، ودافئً.. شعرت بالجوع الشديد وأحشاءي تتقلص احتجاجا، لم أكن تناولت أي شيء منذ عدت للبيت.. كنت قد جلبت معي الكثير من الخبز والجبن وبعض المعلبات من علب التونـة وغيرهـا، ووضـعتها بالثلاجـة.. وقـادتني قـدماي للمطـبخ لأعد بعض الشطائر..

فتحـت الثلاجـة فوجـدتها ممتلئـة عـن آخرهـا بالطعـام.. جـبن.. لانشـون.. مربـة.. لحـم مجمـد ودجـاج.. عصـائر وفاكهـة.. ومـاء مثلج.

بالتأكيد لست أنا من جلب كل هذا الطعام، وأيضًا لم تكن كل هذه الأطعمة موجودة بالثلاجة حين أتيت بالأمس. . بدا الأمر محيرًا هو الآخر.. توقفت للحظات أمام الثلاجة المفتوحة أحملق فيها بلا فهم، ثم مددت يدي نحو طبق زجاجي به شرائح من الجبن الرومي.. قربت الطبق من أنفي وشممته.. بدت رائحة الجبن طيبة طازجة.. إلتقطت شريحة من الجبن وتذوقتها فبدت شهية غير فاسدة.. إذن فهذا طعام طازج، ولست أنا من أتى به، فمن جلبه إذن؟

التفتُّ نحو الموقد.. كان هناك إناء للطهي فوقه.. اقتربت منه بحذر، ومددت يدي نحوه فشعرت بحرارته قبل أن ألمسه، فتحت الغطاء بحرص فتصاعد البخار منه ساخنًا كثيفًا، كأنما قد تم إعداد الطعام به حالاً.. كان بالوعاء مكرونة "إسبجتي" مخلوطة بصلصة الطماطم والبيض.. كانت كما كنت أحب أن أتناولها فيما مضى، عندما كنت صغيرًا.. ألهب الغطاء الساخن يدي فألقيته من يدي، ليدوي رنينه حادًا حين اصطدم بالأرض للحظات مبددا السكون حولي قد أن تهمد حركته دون أن تهدأ حيرتي..

كنت حائرا أمام ما أراه بعيني ها هنا.. هناك شيء قذر يتم تدبيره لي في هذا البيت.. لا تنتظر مني أن أتوهم أن هناك عفاريت أو أشباحًا هي من تفعل هذا بالبيت..

ومرة أخرى رحت أفكر أنه ربما كان هناك من يعلم برغبتي في بيع البيت، فقام بإعداد تلك الخدعة القذرة، كي يدفعني للتخلص منه بأي ثمن.. أذكر أنني قرات ذات مرة إحدى الروايات البوليسية تتحدث عن شيء كهذا.. لكني فكرت أن الأمر يحتاج للكثير من المكر والذكاء والجرأة لتنفيذ أمر كهذا بتلك البراعة التي تم بها الأمر.. لا أظن أن أهالي القرية يتمتعون بكل هذا الذكاء والمكر والخيال، لتدبير كل هذه الأفعال بهذا الإحكام..

وكان عليَّ أن أتأكد مرة أخرى، أنني بمفردي بالبيت وأنه لا أحد مختبئ في مكان، ما يدبر كل تلك الألاعيب لي..

وإندفعت كالمحموم، أبحث في كل ركن وحجرة وزاوية بالبيت.. كان بحثًا محمومًا لم أدع فيه أي شِبر دون أن أفحصه.. تأكدت من أن جميع النوافذ محكمة الغلق من الداخل.. وتأكت من أن الباب الخلفى للمطبخ مغلقًا هو الآخر بإحكام من الداخل كما تركته..

لم أجد أحدًا بالبيت غيري.. إذن من أعدَّ هذا الطعام؟

جلست في الصالة الواسعة على أحد المقاعد الخشبية الأنيقة والتي زُيَّن مسندها الخلفي بالأرابيسك، مفكرًا فيما يحدث..

هل البيت مسكون بشيء ما؟.. وهل مايحدث فيه من أمور غريبة ترجع إلى أفعال الجان والعفاريت أو الأشباح؟.. ارتجفت وأنا أتخيل أمرًا كهذا، بالرغم من أني لم أكن في الواقع أصدِّق هذه الإدعاءات.. بالتأكيد لا أعني أنني لا أؤمن بوجودها، لكني أعني أنها بالتأكيد لها عالمها الخاص الذي لن تتركه، لمجرد أن تعابث البشر أو تزاحمهم في عالمهم.

وبعد حين أعجزني التفكير عن إيجاد تفسير منطقي لما يحدث لي، وبدأت معدتي في التلوي احتجاجًا وجوعًا، فنهضت بتثاقل إلى المطبخ.. وتأملت إناء المكرونة مفكرًا، إن كان من الصواب أن أتناولها أم أتخلص منها.. كان هناك هاتف غامض يهمس بأعماقي أن آكلها وألا أخاف.. لذا فقد وضعت بعضها في أحد الأطباق الموجودة بالخزانة الخشبية ـ بعد أن غسلتها بالطبع بالرغم من نظافتها الواضحةـ وعدت إلى الصالة لأتناولها..

كانت لذيذة شهية حاملة معها نفس المذاق اللاذع الذي كانت أمي تجيد صنعه فيما مضى..

ابتسمت وأنا أشعر بغرابة ما أمرّ به هاهنا.. أنا الآن بمفردي في بيت أبي وأتناول مكرونة كانت أمي هي الوحيدة التي تصنعها هكذا، ولا أدري من صنعها.. بدا الأمر مغريًا بالضحك..

وبدأت أضحك.. وتعالى صوت ضحكاتي الصاخبة، وأخذت تتردد بين جنبات البيت.. وتناثرت بعض بقايا المكرونة التي كنت ألوكها حول فهمي وملابسي..

واصلت الضحك المجنون دون أن أتوقف لوقت غير قصير.. وبدا أن الأمر قد استغرق دهرًا حين انتهيت من هذا الضحك، رحت ألهث بعدها، وحبات من العرق تحتشد بجبهتي.. وتساءلت إن كنت قد جننت أم إني في الطريق لهذا؟

انتهيت من الطعام، فاتجهت إلى الراديو الخشبى العتيق ماركة فيليبس والذي طالما جلسنا حوله منذ عقود.. فتحته فإرتفع منه صوت المذيع رخيمًا هادئا، يذيع النشرة.. لابد أنها نشرة الحادية عشر مساءً..

كان المذيع يتحدث بصوته الرخيم عن زيارة السادات لدمشق ولقائه بحافظ الأسد لإقناعة بجدوى مفاوضات السلام مع إسرائيل.. راح يذيع أخباراً تعود لتلك الفترة في أواخر سبعينيات القرن الماضي.. بدا الراديو وكأنما يستقبل موجات أثيرية من الماضي.. ولم أتمالك نفسي هذة المرة.. قفزت من مقعدي ولابد أنني رحت لزمن طويل أرمق ببلاهة الراديو القديم، الذي مازال يبث أخباره القديمة.. هذه المرة من المستحيل أن أزعم أنني هنا ضحية مؤامرة ما.. فما يحدث أكبر حتمًا من قدرة أي بشري..

لقد انتقلت للماضى ولا أدري كيف حدث هذا؟.. لم أحتمل صوت الراديو فأغلقته قبل أن أفقد عقلي تمامًا، وشعرت بإعياء لا حدود له فاتجهت مترنحًا إلى حجرتي لأنام.. إنني بحاجة للراحة حقًا كي لا أجن..

تذكرتُ أن أهاتف زوجتى لأطمئن عليها وأبنائي.. لكني لم اجد هاتفي المحمول.. أأكون قد نسيته بحجرة نومي؟ ..

بحثت عنه في الحجرة فلم أجده.. أمر سخيف آخر.. يئست من العثور عليه، فقررت أن أكف عن البحث عنه اليوم ولأبحث عنه ثانية في الغد.. ربما سقط منى في أي مكان بالبيت الواسع..

واتجهت لفراشي، ورقدت عليه بإعياء وانهاك لاحدود له. . لم يكن هناك أي شيء يدور بعقلي الآن.. بدا عقلي فارغًا كصفحة بيضاء. وفي الحال بدأ إحساس لذيذ بالخدر يتسلل إلى مفاصلي وعضلاتي.. بدا النوم قادمًا بلهفة نحوي، على جواده الذهبي ليمسح بفرشاته الذهبية شكوكي وقلقي و...و...

نمت..

من مذكرات السيدة كوثر حلمي، زوجة الأستاذ شاكر عبدالحميد:

مرة أخرى يصير هاتف زوجي شاكر خارج نطاق الخدمة،ولا يستجب لاتصالاي المتكرر به..

أشعر بالانقباض، وينهشني القلق على زوجي، ولا أدري سببا لمشاعري تلك.. يختلج قلبي ويضطرب كلما تذكرته فأتساءل بلهفة.. ترآه ماذا يفعل الآن؟.. وأتصل به ثانية ولا يجيبني إلا تلك العبارة المزعجة السخيفة: (الهاتف المطلوب ربما يكون مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة) ، فأزداد اضطرابًا.

لا أدري لماذا صرت أفكر بالبيت بشيء من التشاؤم والخوف.. صرت أخشاه حقًا، ولابد أن حديث حماي الراحل، والذي لم يتوقف يومًا عنه قد سمم أفكارى عن البيت.. صرت أتخيله وحشًا أسطوريًا بفم واسع مظلم كالمغارة، يبتلع زوجي.. أعلم أن ما أفكر فيه سخف لامبرر له، لكنني لا أستطيع الفكاك من تفكيري هذا، ولا حيلة لي في ابعاده عن عقلي..

بالأمس غادر زوجي البيت، فأويت إلى فراشي محملة بهواجسي وقلقي عليه.. وكان هناك الحلم المخيف أو لنقل الكابوس المروّع..

في البداية كان هناك حماي الراحل.. كان يوليني ظهره ممسكًا بفأس، ينقب به الأرض وهو يزيح بلا توقف أكوامًا من التراب..

أحسست بالحيرة مما يفعله وغلبني فضولي، فاقترب منه لأرى ماذا يفعل، لكن شيئًا ما خفيا، ثبتني في الأرض في مكاني فلم أستطع الحراك..

تصلبت بمكاني في انتظار أن أتبين ما يفعله..و ظللت هكذا أراقب حماي حتى جاء من خلفي رجل ضخم، ممتطيًا حصانًا ضخمًا هو الآخر.. لم أرَى وجهه، وتجاهلني هو، واتجه إلى حماي مباشرة، ثم توقف بجواره موليًا ظهره لي هو الآخر، وهتف فيه بصوت أرعبني:

- هل انتهيت من غرس بذرتنا في البيت..

ردَّ عليه حماي دون أن يتوقف عن تنقيبه:

- أوشك أن أفعل.. لم يبقَ إلا القليل يا أبي.

- أسرع إذًا!.. البيت يطالبنا به.. علينا أن نقدمه له.

ويسرع حماي بالحفر، ولما انتهى التفت إليَّ، وقال لي، وهو يشير نحوى بيد استطالت أظفارها، فصارت كالمخالب، وابتسامة مخيفة ترتسم على وجهه:

- تعالي يا كوثر لتري نبتتنا الجميلة.. تقدمى ولا تخافي.. انظري ما فعلت!..

هنا عاودتني قدرتي على التحرك.. تقدمت نحوه بخوف وتردد، فأشار إلى الحفرة العميقة، وقال بصوت كالفحيح:

- انظري!.

ونظرت حيث أشار، فكدت أن أموت هلعًا.. كان رأس زوجي مقطوعًا ، مغروسا في الثرى، كبذرة في الأرض.. وصرخت هلعًا، فتعالت ضحكات حماي المجنونة المخيفة.. هنا استطال شعر زوجي الناعم، وتحول إلي أغصان شجرة ضخمة، ارتفعت إلى عنان السماء، وراحت أوراقها تقطر دمًا فوق رأسي ومن حولي.. ورحت أصرخ بلا توقف ورأيت حماي ينحني أمام البيت، ويقول بصوت غليظ، مخيف:

لقد عاد إليك فارِعَه ياسيدي.. إنه عبدك!..

هنا استيقظت.. ورحت ألهث كما لم أفعل من قبل، وقد أغرق العرق الغزير الوسادة أسفل رأسي وبلل ملابس نومي..

تطلعت إلى الساعة الفسفورية، فأشارت لتخطيها الرابعة صباحًا.. كنت أموت قلقًا على زوجي حينها، وفكرت أن أتصل به لأطمئن عليه، لكني خشيت أن يكون نائمًا، فأزعجه وأقلقه باتصالي في وقت كهذا.. وظللت بمكاني على فراشي أفكر وعشرات الأفكار السوداء تتراقص في عقلي ومخيلتي حتى أشرق الصباح..

وكان الأمر الآخر المحيِّر هو ابناي.. كنت قد أخبرتهما أن أباهما قد ذهب لبيت جدهما الراحل، كي يجد مشتريًا ما له.. هنا ثارا وغضبا وارتفعت صرخاتهما المعترضة على مايقوم به أبوهما.. وبعد ساعات أتاني ابني عبدالحميد وقد ارتسم على وجه تعبير مرعب لم أرَه عليه من قبل ، وقال لي بلهجة غريبة:

- لن يبيعه يا أمي.. إنه بيتنا وسيظل هكذا إلى الأبد..

كنت ذاهلة مما يقوله.. لم تكن كلماته هي ما يقلقني في هذا الوقت.. فلابد أنه يردد ما كان جده يقوله دائمًا عن البيت.. لكن ما

أرعبني هو كيف صارت نظراته وحشية هكذا، وكيف أصبحت لهجته باردة مخيفة..

شعرت حينها أن من يحدثني ليس ابني أبدًا ذا الأعوام العشر.. إن من يحدثني هو الآن هو رجل بالغ مخيف لا أعرفه وأخشاه.. ظللت أرمقه بحيرة، وبادلني النظر بعيون مخيفة باردة لبعض الوقت، قبل أن يتلاشى هذا التعبير من وجهه، ويعود إلى وجهه ملامحه الطفولية البريئة التي أعرفها..

وابتسم حينها لي، وقال ببراءة حقيقة:

- بلغي أبي سلامي، وأخبريه أنني بانتظاره، وأنني سوف أخاصمه حين يعود، لأنه لم يأخذنا معه إلى البيت لنراه.

لم أرد عليه، فأمسك بيد أخيه واتجه به إلى حجرتهما، وتعالى صخبهما ثانية وهما يعودان إلى ألعابهما..

لكنني رحت أفكر بجنون فيما شاهدته الآن منه.. وتذكرت ما رأيته في حجرة حماي قبل موته.. وارتسم في خيالي حماي وحديثه الدائم عن البيت، وتذكرت الحلم المخيف الذي حلمته وعدت لأفكر في زوجي الذي لا أعلم عنه أي شيء الآن، ومازلت أحاول الاتصال به وتليفونه غير متاح..

وجدت نفسي أنتحب حيرة وتوترًا وعجزا .. وعدت لحجرتي ورحت أبكي كما لم أبكِ منذ وقت طويل..

أبكي لأنني أخشى ما تخبأه الأيام لعائلتي..

*****

١٤

لم يكلمني جدي ولم يعِرني اهتمامًا..حاولت أن ألفت انتباهه إليَّ وحدثته كثيرا فلم يلتفت إليَّ.. كنت أرغب في رؤية وجهه، لكني كلما درت حوله، دار بوجهه في الاتجاه الآخر ،كأنما يتعمد ألا أرى وجهه.. في النهاية شعرت بالممل والحنق مما يفعله بي وصرخت فيه بكل قوتي:

ـ لماذا تفعل هذا بي يا جدي، ولماذا تخفي وجهك عني هكذا؟.. دعني أراك.

وأتاني صوته من بعيد، كأنما يصدر من شخص آخر، مرددًا:

- البيت.. إياك أن تتركه.. إنه قدرنا.. البيت يا ولد. لا تغضبه!..

ظل يردد كلامه بلا توقف، فوجدت نفسي أصرخ ثانية:

- إنه ليس قدري ولا أريده..سوف أبيعه، ولن أعيش به.. سوف أبيعه.

لم يلتفت إليَّ وظل وجهه مخفيًا عنِّي بتعمد، وأتاني صوته غاضبًا:

- تبيع أصلك وجذورك وأجدادك يا شقي..أنت ابن عاق ولستَ مِنَّا.. لست منا أبداً.

عدت حينها لأدور حوله، وظل هو يدور بوجهه للناحية الآخرى، وكنت آصرخ فيه بجنون:

- كلا.. أنت لا تفهم.. أنا لست عاقًا.. أنا منكم، لكني سوف أبيع البيت.

وراح صدى صوته يتردد في عقلي مخيفا، وهو يبتعد عنِّي، وجسده يتراجع للخلف نحو الظلام:

- أنت لست مِنَّا.. لست مِنَّا.. لست مِنَّا.

ورحت أصرخ فيه بجنون وأنا أحرك ساقي بالكاد، وقد صارت تزن أطنانًا الآن:

- بل أنا منكم.. أنت تخرف.. أنت مجرد عجوز تخرف.. أنا منكم.. أنا منكم.

كنت أكافح كي ألحقه.. وفجأة وقبل أن أصل إليه مباشرة، التفت بوجهه نحوي.. ورحت أصرخ وأنا أرى بدلاً من وجهه، وجهًا متآكلاً مخيفًا ممتلئًا بالبثور والكدمات الزرقاء، رفع في وجهي يدين عظميتين بلا لحم ، وراحت مئات الديدان البيضاء المقززة، تدخل وتخرج بلا توقف من لحمه المهترئ المتآكل..

كان يضحك حينها بجنون، ضحكة صاخبة مخيفة، وهو يمد نحوي يدَه العظمية، كأنما يرغب في القبض بها على رقبتي، ورحت أتراجع برعب أمامه.. وترددت في أذني كلماته المفزعة:

- لن تبيع البيت أيها الأحمق..لن تستطيع أبدًا أن تفعل.. إن الميثاق أبدي.. أبدي بيننا وبينه، حتى قيام الساعة.

أردت أن أصرخ فيه ، "سوف أبيعه رغمًا عنك ".. لكن صوتًا لم يخرج من حنجرتي.. وظللت أحاول جاهدًا أن أنطق، بلا جدوى.. فى النهاية وقبل أن تمس يده العظمية المشوهة عنقي، طاوعتني صرخة عالية فأفقت بعدها..

لقد كان حلمًا.. بل كان كابوسا!.

كانت هذة أول مرة أرى جدي فيها في حلم ما منذ زمن طويل.. كنت مبللاً تمامًا بالعرق، وكنت ألهث كرجلٍ خاض سباقًا طويلاً بلا راحة.. طافت عيناي بجوانب الغرفة المظلمة إلا من شعاع قمري بلون فضي شاحب يخترق النافذة الزجاجية. . وازدادت طرقات قلبي الفزعة حين وصلت عيناي للركن الملاصق لباب الغرفة.. كان هناك شبح رجل يقف قبالتي يدثره الظلام..

وجف حلقي فجأة، حتى صار كالحطبة المشتعلة، وخانتني أحبالي الصوتية حين أردت أن أسأله برعب:

- من أنت؟

لم يخرج من فمي إلا همهمات مرتجفة مرعوبة.. كنت أشعر بفزع لم أشعر به من قبل، وقلبي يكاد أن يتوقف احتجاجًا، ومازال لم يبرأ بعد من الكابوس الذي خرجت منه توًّا..

كنت أرى بعيني الخيال، عينيه المجوفتين والتي يخفيهما الظلام، وهي ترمقني بثبات.. كنت أدرك أنني أعرفه.. إنه جدي.. وهتف فجأة بصوته الرخيم الذي طالما أرعبني وأنا صغير:

- لن تبيع البيت يا شقي.. لن تستطيع أبدًا أن تفعل أيها الأبله.. إن الميثاق بيننا أبدي.. أبدي أيها العاق.

وتحرك ليدخل وجهة دائرة الضوء الخافت.. كان يحمل وجهًا عظميًا مشوهًا.. تمامًا كما كان بالحلم..

تقدم نحوي مادًا يده العظمية نحوي.. حاولت أن أبتعد عن يده وأن أهرب.. لكنني تجمدت في مكاني من الرعب.. فكرت أن أصرخ.. أن أبحث عن نجدة ما.. بينما ظل يهتف بلا ملل وهو يتقدم نحوي..

-لست منا.. لست مِنَّا.. لست مِنَّا.

وفي النهاية أفلتت صرخة من فمي..

وأفقت مرة أخرى لأدرك أنني كنت أحلم.. كان حلمًا مزدوجًا لعينًا، كاد أن يقتلني من الرعب.. وأسرعت عيناي تنظران إلى الركن المظلم، الذي كان يقف فيه جدي في الحلم، وتنهدت بارتياح حين رأيته فارغًا.. شعرت بجسدي المبلل رعبًا ومثانتي التي بدأت تضج من البول المحتبس بداخلها، وحلقي الجاف كرمال الصحراء الغربية في ظهيرة صيفية، فنهضت متجهًا إلى الحمَّام حيث أفرغت مثانتي.. توجهت بعدها للمطبخ وشربت جرعات صغيرة من عصير التفاح، وعدت ثانية لحجرتي..

الساعة العتيقة بجوار الفراش كانت تشير حينها للرابعة فجرًا.. وظللت لوقت طويل، أحملق في فراغ الغرفة، مفكرا في هذا الحلم المخيف الذي عايشته منذ قليل.. لابد أن عقلي الباطن هو من صنع كابوسًا كهذا، ولابد أن توترى هو المسئول عما أتخيله الآن..

شعرت أن هناك وجودًا نَفسيًا ما لهذا البيت، وربما كان هذا سر توتري، وسر الأحداث الغريبة التي أعيشها الآن.. كان عليَّ أن أسرع في بيعه، كي أنتهي من كل تلك الأشياء المفزعة..

وتذكرت أنني حتى الآن لم أعلن للجميع هنا عن نيتي في بيع البيت، ولم أخبر إلا العمدة بهذا..في الصباح سوف أصنع إعلانًا أخبر فيه الجميع أن البيت للبيع..

تذكرت أيضًا أنني لم أتصل بزوجتي ليلاً.. لابد أنها القلق يساورها نحوي الآن.. عليَّ أن أبحث مرة أخرى عن هاتفي المحمول حين أستيقظ، وإن لم أجده فعليَّ البحث عن هاتف ما في القرية لأحدثها..

ومرّضي الوقت بطيئًا، وقرب الخامسة عاودني النعاس مرة آخرى.. ونمت بلا أحلام هذه المرة.

١٥

طرقتـان خفيفتـان علـى البـاب أيقظتـاني.. فـي البدايـة ظننـت أن مصدرها أحد أبنائي، لكني تذكرت أنني في البيت القديم بمفردي، فوثبت من الفراش توجسًا وتساؤلاً..

مَن صاحب تلك الطرقات؟!.

ومرت فترة من الصمت بعدها، فظننت أنني ربما كنت واهمًا أو أحلم، لكن طرقة قوية أخرى على الباب، أزالت الشك عن نفسي..

هناك بالفعل من يطرق الباب، وأنا لا أحلم أو أتوهم!..

هتفت بقلـق وعينـاي تبحثـان بـالجوار، عـن شـيء مـا يصـلح كسلاح، أحتمي به لو لزم الأمر:

- مَن بالخارج؟!.

وأتى الجواب صاعقًا، بصوت أنثوي لا أعرفه:

- إذن فقداستيقظت يا منصور.. أسرع بتغير ثيابك فالإفطار معد على المائدة، وجدك لا يحب أن ينتظر.

قالتها، ثم تناهى لسمعي بعدها طرقات خطواتها المبتعدة، وهي تتردد على الأرضية الخشبية..

وجلسـت علـى فراشـي، محـاولاً أن أتمالـك نفسـي، ومحـاوِلا استيعاب ما قالت لي تلك السيدة الغريبـة.. مَن منصور هذا الذي نعتتني به؟.. بل في البداية من تكون هي؟!

إن منصـور الوحيـد الـذي أعرفـه كـان جـدي.. جـدي الصـارم المخيف الذي لازمنـي اليوم فـي أحلامـي.. هل تعتقد تلـك المـرأة أنني منصور؟

شعرت بالارتباك.. وتحسست جبهتي وضغطت عليها بأصابعي، لأزيح قليلاً من الصداع الذي راح ينهش عقلي.. لكنـي لاحظت شيئًا مـا غيـر مـألوفٍ حين لامست وجهـي.. كـان وجهـي أمـردَ.. وكـان أصـغر حجمًـا ممـا اعتدتـه.. واستدرت بعنـف نحـو المـرآة، ونظرت إلى وجهي فيها بحذر وترقب..

لـمِ تعكس المـرآة وجهـي الـذي أعرفـه.. بـل رايـت فيهـا وجهًـا آخراً.. وجهًا طالما رأيته من قبل في بعض الصور الفوتوغرافيـه القديمة لعائلتي، والتي كانت تعود لثلاثينيات القرن الماضي..

رأيـت مـا آل إليـه وجهـي، فتذكرت صـورة قديمـة لجـدي أثنـاء شبابه المبكر.. كان يمتطي فيها حصانًا أشهباً، ونظرة تحدي قويـة تتواثب من عينيه، وتكـاد أن تمـلأ الصورة بأكملهـا.. رحت أرمـق في المرآة تلكمـا العينـين النافذتين الواسعتين ،والجبهـة الواسـعة العريضة والأنف المستقيم القوي، والفم المتقلص، والـذي يشـي بالرغبة في التسلط والقسوة..

لقد ذهب وجهي وحل وجـه جدي محلـه.. وجـه جدي حين كـان مراهقًا..

هل مازلت أحلم؟..أم تراني جننت؟!..

وكان الاحتمال الثاني هو أقربهما لعقلي.

وظلـت عينـاي الجـاحظتين تنظـران إلـى المـرآة برعـب وغيـر تصـديق.. رحـت أتلفـت حـولي بسـرعة لأرى إن كـان هنـاك أحـد غيـري بـالحجرة.. كنـت بمفـردي، فعـدت أنظـر للمـرآة لأرى أن الانعكـاس الـذي يحمـل صـورة جـدي يتبـع انفعـالاتى أنـا.. عينـاه جاحظتان كعينيّ.. أنفاسه متسارعة كأنفاسي.. مددت ذراعي نحو المرآة فمدَّ ذراعه نحوي.. حركت أصابعي بحركـات سريعة ففعل المثل..

هذا انعاكسي أنا بلاشك..

هـذا يعنـي أننـي صـرت أحمـل صـورة جـدي الراحـل حـين كـان صبيًا.. فأين ذهب وجهي؟!

واستغرق الأمر مني بضع دقائق كي أسترد أنفاسي المضطربة، وتـنـتظم دقـات قلبـي المرتـاعـة.. ولـم أكـف لـحظـة علـى التطلـع إلـى انعكـاس صـورتي فـي المـرأة، عسـى أن تعـود مـرة أخـرى لتحمـل وجهي أنـا..

لكن وجهي ظل كما هو يحمل صورة جدي..

ومـرة أخـرى، عـادت الطرقـات علـى البـاب، حاملـة الصـوت الأنثوي الذي ناداني منذ قليل، وهو يقول بنفاذ صبر هذه المرة:

- هل نمـت ثانيـة يامنصـور؟ ..إنـك تبغـي عراكًـا مـع جـدك هـذا الصباح كما يبدو.

وجدت نفسي أجيب عليها، دون أن أدري لماذا فعلت:

- أنا لم أنم.. سوف أهبط على الفور.

- إذن أسرع.. جدك بدأ في التملل وقد سأل عنك.. لانريد شجارًا في الصباح أرجوك.

وابتعدت خطواتها، فنهضت من الفراش.. لاحظت جلبابًا معلّقًا على مشبك خلف الباب فارتديته وخرجت.. بدا البيت كما كان دائمًا، لا شيء فيه مختلف عما اعتدته.. هبطت الدرج لأجد أن هناك عائلة ما قد تجلس حول المائدة التي نتناول عليها الطعام..

في صدر المائدة جلس رجل ضخم تبدو عليه القوة بالرغم من أنه مسن.. كنت أعلم هذا الرجل من صورة قديمة له في صدر البيت.. كان جد جدي "بشتمر". . وفى مواجهته جلست امرأة طاعنة في السن مثله، يبدو عليها الضعف الشديد والشحوب، بالرغم من ملاحتها التي لم تنجح الأعوام في الذهاب بها.. وعن يمين الرجل كان هناك مقعد خالٍ خمنت أنه لي، أما عن يساره فقد جلست سيدة جميلة في منتصف العمر ،تليها فتاة مراهقة تشبها كثيرًا،خمنت أنها لابد أن تكون ابنتها..

كان الجميع يرمقونني.. الرجل المسن بنظرة غاضبة، والسيدة المسنة بإشفاق، والسيدة التي بجواره بعتاب، والفتاة بخوف..

تجاهلت النظرات كلها وجلست في مقعدي صامتًا وأنا أحاول أن أستوعب ما يحدث لي.. لكن الرجل لم يتركني لتأملاتي وحيرتي، وصاح في وجهي بصوت هادر غاضب:

- ألم أحذرك من التأخر ثانية.. يبدو أنك لا تتعلم أبدًا.. هل صرت تبغي العقاب في كل يوم.

تطلعت إليه بنظرة خاوية ولم أرد.. أشعر أنني أعيش في فيلم غريب قديم، وقد أقحموني فيه إقحامًا.. هنا قالت السيدة المسنة محاولة تهدئته:

- لابد أنه استيقظ متأخرًا يا بشتمر بك، ولن يفعلها ثانية بالتأكيد.. أليس كذلك يا منصور؟

انتقلت عيناي نحوها حاملة نفس النظرة الخاوية، التي أتابع بها ما يدور حولي، ولم أعقّب.. ساد الصمت والترقب على المائدة وكل العيون مصوَّبة نحوى بتوجس وترقب.. ثم قطع الرجل المسن الصمت ليقول بلهجة أقل غضبًا:

- لماذا لا ترد يا ولد.. هل أنت مريض؟

كنت أشعر بالخواء الشديد.. مَن أنا، ومن أين جاء هؤلاء، وماذا يحدث؟ .. ووجدت نفسي أنهض من مقعدي فجأة، وقد سئمت ما يحدث، وأشير إليهم جميعًا بإصبعي، قائلاً بإعياء وحيرة:

- من أنتم؟.. بل وكيف تكونون هنا الآن.. إنني أعرفكم جميعًا.. كلكم موتى.. فكيف عدتم للحياة ثانية؟

وكأني ألقيت قنبلة من الدهشة انفجرت في وجوههم، فوجموا.. لم أهتم بهذا، وقد قررت أن أترك كل هذا الهراء وأغادر المكان.. واندفعت مهرولا للخارج.. كان آخر ما سمعته قبل أن أخرج صوت جدي، وهو يصيح بصوت هادر:

- أيها البيت.. أنجدنا.. لقد جن الولد..

ودلفت الحديقة..كانت كأحسن ما يكون كما كانت دومًا.. مرة أخرى تزدهر الحديقة بعد أن كانت بالليل جدباء.. لقد اعتدت الآن تلك الأشياء الغريبة، وقد شعرت أنني في طريقى للجنون..

ربما كنت أنا منصور كما ينادونني الآن، وربما كنت أهلوس بشأن عبدالحميد وشاكر..

ربما لست أنا شاكر، ولا وجود لشخص بهذا الاسم، وأنني أنا من صنعت وجودًا وهميًا له.. وربما لست متزوجًا ولا وجود لأبنائي..

كنت حائرًا شاعرًا بالتيه الذي يغرقني ويغمر عقلي.. قادتني خطواتي إلى المكان الذي وضعت سيارتي به بالأمس حين أتيت.. لم تكن هناك.. وقد حلَّت محلها مَركَبة خشبية تجرها الخيول، فشعرت برغبة ملحة في البكاء، وأنا لا أعي ولا أفهم مايحدث لي..

جلست على الأرض المعشوشبة وقد أخفيت وجهي بكفي يديّ.. ثم رفعت رأسي وصرخت بعدها بجنون:

- مَن أنا أيها البيت؟

ولم يجاوبني أحد ما.. فبكيت قهرًا.

١٦

من أقوال "إبراهيم صابر" الشهر ب(إبراهيم كنكنة) في المحضر رقم ٣٤٢ لعام ٢٠٠٩ مركز شرطة أبو قرقاس..أمام الرائد كمال عيسى رئيس المباحث

- دعوني أخبركم بكل شيء دون أن تقاطعوني، لأنني لا أنتوي الكذب هذه المرة.. هذا في الواقع لأنني أرتجف في كل لحظة، وأموت في كل يوم هلعًا ألف مرة مما حدث لي..

كنا أربعة.. أنا ورضا فسته، وموسى هوجان، وسالم قَمشه.. وكما لايخفي عليكم، فكلنا لصوص ومسجلون خطر، وأقلنا قد قُبِضَ عليه وسجن خمس مرات قبل ذلك..

كان سالم هو من اقترح علينا أن نسطو على ذلك البيت المهجور.. ظل يؤكد لنا كل ليلة أن البيت لم يعد أحد ما يزوره،

وأنه لابد يحوي الكثير من الأشياء التي تصلح لانتزاعها منه.. لم أكن متحمسًا في البداية لفكرته هذه، وكذلك موسى.. وأعلن رضا أنه معنا في ما نقرره سويًّا..

كلنا كان يعلم الحكايات الكثيرة التي تتناقلها الألسنة عن هذا البيت، وعن نشأته الغامضة.. كنا نعلم أن من سكنوه هم أول من كان هنا، وأن آخر مَن عاش به هو عبدالحميد بك منصور.. وأنه غادره حين أُصيبَ بالشلل ليعيش مع ابنه بالقاهرة.

لم يرى أحد أبدًا شيئًا غريبًا أو مخيفًا يحيط بالبيت.. فلا سمعنا به عن جانٍ أو عفاريت أو النداهة حتى.. لكن كانت هناك دومًا تلك المهابة التي تحيط بالبيت.. الرهبة من محيطه وما يقال عنه .. فلم يجسر أحد عن الدنو منه إلا بإذن أصحابه..

لكن سالم كان لحوحًا كذبابة صيف لعينة.. ومع الوقت والإلحاح الذي لا يرحم، لانت عقولنا للفكرة، فقام موسى بمراقبة البيت لبضع أيام فلم يرَى به أحدًا، ولم يرَى به ما يريب.. فقررنا أن نقوم بالأمر وأعددنا العدة لهذا..

اخترنا يومًا مظلمًا بلا قمر في سمائه، وانتظرنا حتى انتصف الليل، ثم حزمنا أمرنا واتجهنا إليه.. قفزنا أسواره المتوسطة الارتفاع بيُسر.. ثم وجدنا أنفسنا في حديقة مهملة كثيرة الأعشاب الذابلة والأشجار المتشابكة وأوراق الشجر التالفة..

اتجهنا مباشرة إلى البيت نفسه وتولى رضا أمر الباب.. كان من النوع العتيق ذا مزلاج ضخم، حاول رضا فتحه كثيرًا لكنه فشل.. سبه وبصق عليه ثم ركله بغِلٍّ، قبل أن يتوقف أمامه حائرًا وهو يحك رأسه بيأس..

لم نكن لنقف أمام عقبة كهذه، وانتقلت عيوننا بآلية نحو النوافذ الواسعة.. لن يكون زجاجها عائقًا بالتأكيد أمامنا، فاتجهنا

إلـى أقـرب نـافـذة إلينـا.. اعتلاهـا موسـى وخلـع وشـاحه، ووضـع حجـرا بداخلـه كـي يكـتم صـوت الحجـر، ثـم رأح يضـرب الزجـاج ضربات متلاحقة حتى تهشَّم..

أزال بعدها الزجاج المهشم، صانعًا فجوة تصلح لعبور النـافذة، وأشار إلينا، فصعدناها وعبرناها على الفور..

كانت البيت مظلمًا، فأضأنا مصابيحنا اليدوية، وقد منعتهم من إشعال المصابيح الكهربائية كي لايشعر بنا أحد..

وأدركنـا مـن الوهلـة الأولـى كـمَّ الثـراء الـذي يتمتـع بـه أصـحاب البيـت.. كـان هنـاك الكثيـر مـن الشـمعدانات النحاسـية الثقيلـة، والتماثيـل البرونزيـة الضـخمة، واللوحـات الفنيـة التـي لابـد أنهـا تسـاوي الكثيـر.. كمـا بـدت السـجاجيد والمفـارش بحالـة طيبـة، فقررنا أن نحصل عليها هي الأخرى..

كانـت غنيمـة بـاردة وسـهلة، وكـان علينـا لـو أعملنـا عقلنـا أن نكتفـي بهـا، لكـن الطمـع والجشـع بـداخلنا دفعنـا لأن نبحـث عـن المزيد..

وقال سالم، وهو يدور بضوء مصباحه في المكان:

ـ أعتقد أن هذا البيت لابد يحـوي مـا هـو أكثـر قيمـة ممـا نـراه هاهنـا.. ربمـا كانـت هنـاك خـزائن سـرية تحـوي أمـوالاً أو مجوهرات.. لذا علينا أن نفتش المكان جيدًا.

وقلت معترضا، وأنا أرى المكان المتسع للغايه:

ـ لكن تفتيشه قد يستغرق الليل كلـه، ولا يجب علينـا أن نمكث هاهنا طويلاً.

لكنه لم يبالي باعتراضي، وردَّ عليَّ بحسم حينها:

- إذًا لنفترق ويبحث كل منا في اتجاه.

وانقسمنا كما أشار، فكان الطابق السفلى من نصيبي أنا ورضا، والطابق العلوي من نصيب موسى وسالم..

إتجهت إلى رواق صغير على يمين الصالة يفصل المطبخ وحجرة أخرى عن الحمام الواسع، ورحت أفتشهم بلا حماس حقيقي، وراح رضا يبحث في الناحية الأخرى من الطابق..

وبعد قليل تعالت صيحة ما فجأة، ثم وئدت على الفور، ارتجفت هلعًا وأسرعت عائدًا للصالة الواسعة لأرى ما هناك.. بدا المكان ساكنًا إلا من صوت خطوات بالأعلى، فناديت الجميع بقلق وضوء مصباحي يمسح الظلام:

- رضا.. سالم.. موسى.. أين أنتم..

وتعالت أصواتهم ملبية النداء فاستعدت رباط جأشي، وعدت لبحثي.. لابد أن أحدهم قد صادف جرذًا ما، أو اصطدمت قدمه بشيء ما فأصدر تلك الصرخة المكتومة.. بحثت طويلاً في الحجرة المجاورة للمطبخ، والتي كانت ممتلئة عن آخرها، بالكثير من الخردوات والكراكيب.. خمنت أنهم يلقون هنا بالأشياء التي لا يحتاجونها، ويرون أنهم قد يكونوا بحاجة لها فيما بعد..

طال الوقت، ولم أظفر إلا بمرآة طُعِّم إطارها بالذهب.. وعدت نحو الصالة لأرى حظ الآخريين.. كان المكان صامتًا، ساكنًا كالقبر، فناديت على رضا.. ولما لم يجِبني قررت أن أذهب إليه لأرى ماذا يفعل.. كان هناك ممر آخر مقابل للمر الذي فتشته وعلى جانبيه بعض الحجرات الصالحة للسكنى، وكانت أول

حجراتـه مكتبـة عملاقـة.. دخلتهـا وأنـا أنـادي رضـا فلـم يجِبنـي، سببته في سري متسائلاً أين تراه قد ذهبَ؟

كانـت حجـرة المكتبـة ضـخمة للغايـة، يتصـدرها مكتـب خشـبي ضـخم، فخـم فـي تصـميمه، وقـد امـتلأت حـوائط الغرفـة بـالأرفف الخشبية المكدسـة بالكتـب.. توقعت أن تحـوي هـذه الحجـرة كنـزًا مخبوء في مكان ما، كما يحدث في الأفلام..

لابد أن هناك خزينة خفية خلف لوحة ما، ولابد أن هنـاك قطعـة ما من أثاث المكتب إذا حرَّكتها تؤدي لفتح خزانة في الحائط.. لقد رأيت هذا في الأفلام مرارًا.. بحثت طويلاً، لكنني لم أصل لشيئ من هذا.. هممت بترك الغرفة محبطًا، حين شعرت بقطرة سائلة، لزجة تسقط من أعلى على جانب وجهي..

تحسستها بين أناملي بارتياب، ورفعت ضوء مصباحي اليدوي لأعلـى لأجـد رضـا معلقـا بالسـقف بـلا رأس.. عرفتـه مـن هيئتـه وملابسه وقطرات الدم تتساقط من عتقه المبتور.. شعرت بهلـع لا حـد لـه، وألقيت مابيدي. ماعدا المصباح، ورحـت أصـرخ وأنـا أهرول للخارج وقلبي يتواثب في صدري في عنف شديد.. صعدت الـدَرَج كـالمجنون باحثًـا عـن زميلـيّ الآخـرين، متلمسًـا الحمايـة والصحبة والاطمئنان بهما وعليهما..

اتجهت إلى اليمين في البداية حيث لمحت ضوء مصباح يدوى في إحدى الحجرات، فخمنت أن بها أحد صاحبي.. دخلـت الجحـرة لأجد المصباح ملقى على الأرض، وضوؤه متجـه للحـائط.. رفعت رأسي لأعلى علـى الفور متوقعًا أن أجد أحدهما معلقًا بالسقف، كما وجدت رضا بالأسفل، لكن السقف كان خاليًا..

كانت الغرفة خالية فغادرتها لأتجه للغرفة التالية.. وكـان هنـاك موسى.. كان ملتصقًا بالحائط من ظهره بصورة لا أفهم دون أن أرى قيـودا تربطـه بهـا، وعلـى وجهـه ارتسـمت ضـحكة غريبـة

مفزعة.. وتعالت صرخاتي، وأنا أكتشف أن جثته بلا ذراعين أو ساقين.. و من أسفله كانت هناك بحيرة هائلة من الدماء..

لماذا مات وهو يضحك هكذا، وكيف احتفظ وجهه بتلك الضحكة الغريبة رغم موته؟!.. هذا ما لا أعلمه..

ولم يبقَ إلا سالم.. رحت أبحث عنه وأناديه كالمحموم في الحجرات الباقية، ورأسي لايتوقف عن الالتفات يمينًا ويسارًا وأمامًا وخلفًا، بحثًا عن عدوٍ وهمي قد يفعل بي ما فعله بالآخريين..

وفي الغرفة الأخيرة رأيته..

كان ماردا عملاقًا يناهز المترين طولاً..أسود كظلام الليل.. ضخمًا كالمردة العمالقة.. وكان ينحني على شيء ما أمامه.. تجمدت في مكاني، أنظر إليه مذعورًا، وقد عجزت قدامي عن متابعة السير. وانتبه إليَّ ، فالتفت نحوي..

كان يبتسم ابتسامة تنضح بالشر والظلام، وبين يديه رأيت جسد موسى مسجيً، غارقًا في دمائه، وشاهدت تلك الفجوة الدامية الهائلة في صدره، وعلى مقربة منه راح قلبه المنزوع من صدره يتواثب نابضًا على الأرض..

ووجدت نفسي مرة واحدة، أجري وأعدو كما لم أفعل من قبل.. اصطدمت بالسلم، لابد أن ذراعي قد كُسِر حينها، لكنني لم أشعر بأي ألم، ولم أكن لأتوقف لو قطع ذراعي نفسه..

لقد كنت مذعورًا.. كنت خائفا كما لم أشعر من قبل.

وألقيت بجسدي من الشباك الذي حطمنا نافذة، ورحت أجرى في الحديقة المظلمة كالمجنون.. كنت أسمع أنفاسه وهو

يلاحقنــي.. وصلت إلـى السـور الحجـري وقفـزت مـن فوقـه ولـم أتوقف..

عندئذ رحت اصرخ بلا توقف وقد تهالك جسدي إعياءً وفزعا.. وكانت هناك تلك الدورية الليلة التي التقطتني وقبضت عليَّ..

لقد كنت بالبيت وفقدت أصحابي هناك، ولابد أن ذلك العملاق الأسود هو من قتلهم.. نعم إنه قد قتلهم جميعا!.

لقد علمت الآن لماذا يخشى الجميع هذا البيت.

إن هذا البيت ملعون.. ملعون بلا مبالغة أو شك .. حاولوا أن تفتشّوه وسوف تدركون أنه ملعون.. ملعون كما أخبرنا الأجداد.

١٧

يبـدو أننــي قـد غفـوت فـي الحديقـة> وحـين اسـتيقظت كانـت الشمس قد انتقلت إلـى الغرب، فصبغت صفحة السماء بصفرة مقبضة.. تطلعت إلى الحديقة الجدباء وأكوام الأوراق الذابلـة التـي تحيط بي، والتي لابد أنها قد تراكمت منذ زمن بعيد بيد الإهمال..

مرة أخرى تعود الحديقة إلى صورتها الأولى التي رأيتها حين عدت للبيت أول أمس، مرة اخرى تسترجع جدبها وموتها.

هل يعبث بي البيت؟.. كنت أعلم أن هذا ما يحدث بالفعل، إلا أنني هززت رأسي بعناد لأطرد تلك الفكرة من ذهني.. البيت في النهاية ليس إلا أحجارًا وجدرانًا . ولابد أن هناك تفسيرًا ما لما يحدث.

تذكرت ماحدث في الصباح.. الرجل الفظ الذي لابد أنه كان جد جدي وزوجته العجوز.. السيدة الجميلة التي أظن أنها والدة جدي، وابنتها التي لابد أنها أخته كاريمان كما أذكرها.. هل مازالوا بالداخل بانتظاري؟

أتوتر واستعيد حيرتي، وأنا لا أدري ماذا عليَّ أن أفعل لو كانوا بالداخل.. رنوت ببصري إلى البيت.. كانت مصابيحه مضاءة، وقد تسلل الضوء خلال النوافذ والستائر نحو الخارج..

أيعني هذا أنهم بالداخل؟.. شعرت باليأس والحيرة لدقائق قبل أن أشعر بالغضب..

لو كانوا بالداخل فعليهم أن يفسروا لي ما يحدث.. لابد أن أحدهم على الأقل، لديه تفسير ما لما يحدث لي.. ونهضت من مكاني واتجهت للبيت بخطوات متعجلة..

نعم لابد أن يفسروا لي ما يحدث..

انتهبت إلى سيارتي الشاهين التي عادت مرة أخرى لتقبع بمكانها في الحديقة.. مازلت أذكر أنها لم تكن هاهنا في الصباح.. لم أعِر الأمر اهتمامًا كبيرًا، ولم تتباطئ خطواتي.. لم يكن اختفاء السيارة وعودتها هو أغرب ما مررت به منذ عدت!..

وكان البيت فارغًا.. ذهبوا ثانية واختفوا كما جاءوا.. فتشت عنهم بالأعلى فلم أجدهم.. ومرة أخرى رحت أتساءل.. هل أتوهَّم كل مايحدث؟!

حانت مني التفاتة إلى مرآة ضخمة يزينها إطار ذهبي أنيق موجودة بالرواق الضيق بين الحجرات بالأعلى.. كانت صورتي التي أعرفها هي ما أراه خلالها الأن.. لقد عدت أنا الآخر بوجهي وذهب وجه جدي و أبي.. دققت النظر إلى وجهي للحظات، مستأنسًا بخلجاته، قبل أن أتنهد بارتياح ثم أبتعد..

وعاودني الشعور بالجوع.. وتذكرت أنني لم أتناولٍ أي شيء منذ الصباح، وذهبت إلى المطبخ.. كانت هناك وجبةٌ من الأرز والدجاج المشوي والسلاطة الخضراء، موضوعة على المنضدة بمنتصف المطبخ ومغطاة بملاءة بيضاء نظيفة..

بالطبع لست أنا من أعد هذا الطعام.. بدا الطعام شهيًا إلا أنني لم أرغب في أن أتناوله هذه المرة وأنا لا أعلم من أعده.. حملته وألقيته كاملاً في صندوق الفضلات، ثم اتجهت للثلاجة وانتقيت منها جبنا أعلم جيدًا أنني من جلبه إلى هنا، متجاهلاً الأطعمة الأخرى التي تكتظ بها الثلاجة..

ربما من جلبها وضع بها عقارًا ما يسبب لي تلك الهلوسات التي أعيشها هاهنا.. لذا قررت أن أكون أكثر حذرًا وألا أتناول أي أطعمة لم أجلبها بنفسي..

صنعت بعض الشطائر واتجهت للصالة الواسعة، حيث رأيت أن أتناولها فيها، لكنني غيرت رأيي واتجهت إلى حجرة المكتبة..

منذ صغري وأنا أنظر إلى المكتبة الضخمة بانبهار شديد.. حجرة واسعة للغاية تمتلىء جدرانها بالأرفف الخشبية، التي تكتظ بالكامل بآلاف الكتب والمجلدات الضخمة.. مكتبة كهذه

تحتاج لعمر بأكمله كي يستطيع المرء قراءة ما تحويه.. لكنني في الحقيقة لم أكن يومًا من هواة القراءة، ولم أطق يومًا الاستمرار في قراءة كتاب ما حتى الصفحة العاشرة منه..

لذا، وبالرغم من انبهاري بها إلا أنني لم أكن أقربها كثيرًا.. كما أن أبي كان يرفض أن أدخلها بمفردي وأنا طفل بحجة الحفاظ عليها، بل وحين جربت مرة أن أدخلها بمفردي منذ أعوام بعد أن كبرت، غضب أبي كثيرًا، قائلاً إن الوقت لم يحن بعد لدخلوها بمفردي.. لم أفهم مايعنيه لكنني لم أعِر الأمر حينها الكثير من الاهتمام، فلم تكن الكتب على قائمة اهتمامي..

وضعت الشطائر على المكتب الخشبي الضخم الموجود في صدر المكان.. مكتب أنيق مليء بالزخارف والأحافير المبهرة..

التقت شطيرة ورحت أقضمها ببطء وأنا أتجول ببصري بين أرفف الكتب.. رحت أقرأ عناوين المجلدات الضخمة.. الأغاني للأصفهاني.. المستطرف في كل فن مستظرف.. اللزوميات.. المقدمة لابن خلدون.. فضائل مصر.. مقامات الحريرى.. وغيرها الكثير والكثير..

انتقيت شطيرة أخرى وانتقلت معها إلى ركن آخر.. كان هذا ركن الكتب الأجنبية.. قرأت عناوينها المدونة على كعوبها.. لكني لم أفهم مايعنيه أيٍّ منها، لم تكن لغتها هي الإنجليزية أو الفرنسية، أو حتى الألمانية اللواتي أجيدهم جميعًا..

هل تكون اللاتينية؟.. ربما!.. لكن السؤال الحقيقي الذي أشعل فضولي، هو من جلب تلك الكتب، وكيف كان يجيد تلك اللغة المنقرضة، ولماذا يفعل؟

أخرجت أحد المجلدات من مكانه وتحسست غلافة الجلدي الغريب.. كانت هناك رسوم بخط اليد تمثل كائنات ومسوخًا تلتف

حـول جسـدٍ مخـفٍ رأسـه وأناملهـا الطويلـة الكثيـرة العقـد ترسـم أشكالاً غريبة من الظلال المخيفة.. وكـان عنوانـه المكتـوب بخـط اليد:

“DAEMONES BELLUM”

لم أفهم بالطبع معنى هذا العنوان المخيف.. فتحت الكتاب وأنـا أتساءل عن كنه المادة المصنوعة منها تلك الصفحات.. كانت ذو ملمس خشن غريب، ولون بني باهت مدبوغ..

كان الكتاب مكتوبًا باليد ومن الصعب قراءة حروفه المتشابكة.. كمـا كـان بـه الكثيـر مـن الرسـوم التـي تمثـل المسـوخ والقـرابين وكائنات غريبة أخرى ومخيفة لا أعلمها.

أعدتـه إلـى مكانـه وأخـذت أحـاول قـراءة عنـاوين المجلـدات الأخرى:

MAGI CAEDE.

DEVINCTIONIBUS PERMANSIT.

PUGNATORUM DAEMONIBUS ANGELOS.

شعرت أن هذه الكتب تحمل سرًا ما.. أتكون كتباً في السحر؟!!!

أحسست بالنفور على الفور وأنا أتخيل أن عائلتي كانت تشتغل بالسحر.. بـالطبع لـم يكـن هـذا أمـراً يـدعو للفخـر، قـدر مـا يـدعو للنفور.

حاولت أن أتذكر إن كنت رايت يومًا ما شيئًا مريبًا يقوم به جدي أو أبي الراحل.. لكني لم أتذكر شيئًا كهذا.. بل مازلت أذكر كيف

كان أبي ومن قبله جدي متدينين، يواظبان على الصيام، وأداء فروض الصلاة بالمسجد.. أنا نفسي تعودت الصلاة بالمسجد منهما.. كما أذكر أنهما كانا محبوبين للغاية في القرية، ولم تُثَر في أي وقت من الأوقات أي شبهات حولهما، ولو كانا يقومان بالسحر، فلابد أن ينكشف أمرهما في وقت ما، وحتمًا لن يرحب أحد بهما حينها..

هل تكون تلك الكتب أدبية؟.. ربما!!. فأنا لا أفهم تلك اللغة المكتوبة بها.

ورن هاتفي بالخارج.. تذكرت أنني قد فقدته بالأمس.. أسرعت لأبحث عنه.. كانت شاشته تضيء فوق الأريكة الكبيرة بالصالة.. التقطه ونظرت لشاشته، فطالعني اسم زوجتي كمتصل.. وأتاني صوتها ببحته المميزة التي أحبها متوترًا:

ـ حمدا لله أنك أجبتني الآن.. أين كنت، ولماذا كان هاتفك مغلقًا طوال الوقت؟

ـ مرحبا يا حبيبتي.. فقدته بالأمس ولم أعثر عليه إلا الآن.

تنهدت بعمق وصمتت لبعض الوقت، قبل أن تقول بتعجب:

ـ أهذا يعني أنك قد فقدت تليفونك لثلاثة أيام كاملة.

بدا سؤالها غريبًا، فقلت بحذرٍ:

ـ ماذا تعنين بثلاثة أيام؟

ـ أعني أن تليفونك كان مغلقًا لثلاثة أيام كاملة.. اتصلت بك خلالها أكثر من ألف مرة دون رد.. لقد كدت أن أموت عليك قلقًا

وأنـا لا أدري أيـن أنـت، ومـاذا تفعل، حتـى إننـي فكـرت أن أتـرك الأبناء هاهنا، وأهرع إليك لأطمئن إليك.. و...

لم أعِ ماتقوله وعقلي يشتعل مفكرًا في كلامهـا.. أي ثلاثـة أيـام تلك التي تدعي أن تليفوني كان مغلقًا فيها.. لقد أتيت إلى هنـا قبـل يـومين فقـط.. فلمـاذا تتحـدث عـن ثلاثـة أيـام مضـت دون أن نتحدث؟..

انتبهـت إليهـا ومازالـت تحـدثني بـلا توقـف وكانـت تقـول بـين بكائها:

ـ أنا لا أفهم كيف تقبل أن تفعل بي هذا؟.. إننـي أصدقك فـي أنـك قـد فقـدت تليفونـك كمـا قلـت.. لكـن ألا يوجـد أي سـنترال بـالجوار تحدثني منه كي تطمئنني عليك.. إن أبسط حقوقى عليك ألا تدعني فريسة للشكوك والأوهام والهواجس.. أنت تؤ...

هنا قاطعتها وأنا أرى أن هذا ليس أبدًا وقت العتـاب.. وقلـت لهـا بحذر:

ـ حبيبتــي معـذرة لمقاطعتــك.. أعلــم أننــي قــد أخطــأت. لكــن أخبريني، في أي يوم نحن الآن؟

جـاوبني صمتها وشـعرت بحيرتهـا وترددهـا، فقلـت حاثًـا إياهـا على الكلام:

ـ إنني لا أمزح.. في أي يوم نحن الأن؟..من فضلك أجيبيني..

ـ اليوم هو السبت. لماذا تسأل؟.

هنا شعرت بدوار عنيف حتى إنني عجزت عن الاستمرار واقفـا فألقيت بنفسي على المقعد المجـاور لـي، ورحـت ألهـث مفكـرًا فـي

يومين كامليين قضيتهما بالبيت دون أن أعلم ماذا فعلت فيهما.. لقد جئت هاهنا مساء الثلاثاء ولقد قضيت هاهنا بالبيت ليلتين فقط.. المفترض أن يكون اليوم هو الخميس.. فكيف يقفز الوقت بغتة ليصير السبت؟

لغز آخر من ألغاز البيت التي تدفعني حثيثًا للجنون.. طال صمتي فتحدثت زوجتي وقالت بقلق:

ـ شاكر.. هل مازلت معي؟

ـ إننى معك يا حبيبتي.

ـ إذا لماذا صمتَّ؟

لم أشأ إفزاعها بما أفكر به فقلت بسرعة:

ـ لاشيء ياحبيتي.. لاشيء.. أخبريني كيف حال الولاد؟

تنهدت ثانية، ثم أجابت:

ـ إنهما بخير ولايكفان عن السؤال عنك.

ـ أخبريهما أنني لن أمكث هاهنا طويلاً، وأنني عما قريب سأكون بينهما ثانية.

عاد الصمت بيننا مرة أخرى لدقيقة أو أكثر، قبل أن تسألني سؤالاً غريبًا:

ـ شاكر.. هل يمكنك أن تصف البيت لي.. صف لي من فضلك كيف يبدو من الخارج؟

كان سؤالها مباغتًا وغير مفهوم لكنني تمالكت نفسي وأجبتها:

- إنه بيت قديم وكبير.. من بعيد يبدو كالقلاع الإنجليزية القديمة، لو كنت قد رأيتها في صورة ما من قبل.. لونه جيري أبيض ونوافذ كثيرة بيضاوية الشكل وستائر رمادية، ويحيط به من جميع الجوانب حديقة ضخمة واسعة.

وشعرت بأنفاسها تتسارع، وهي تقول بصوت مبحوح:

- وهل به برج طويل؟

شعرت بالدهشة، فأنا لم أحدثها به من قبل فكيف عرفت:

- هذا صحيح.. إن به برجًا يشبه أبراج القلاع الإنجليزية القديمة.. لكن لماذا تسألين؟

- لقد رسم عبدالحميد البيت.. رسمه تمامًا كما وصفته.

إزدادت دهشتي واضطربت مما تقوله، فقلت:

- وكيف رسمه هكذا دون أن يراه، ومن أخبره بذلك البرج؟

لم تجِبني وظلت أنفاسها متسارعة قبل أن تقول برجاء مفاجئ في صوت أقرب للبكاء:

- شاكر.. أرجوك اترك هذا البيت اللعين حالاً، وتعالَ إلى القاهرة الآن.. إنني خائفة بشدة وفي حاجة لأن أراك بجوارى.. دعه أرجوك وتعالَ إليَّ.. ليذهب البيت ونقوده إلي الجحيم.. فقط أريدك هاهنا.

كنت مازلت غلرقا في دهشتي وحيرتي.. كيف رسم ابني البيت دون أن يراه.. وكنت أرغب في أن أختلي بنفسي وأفكاري، فقلت لها دون أعطيها مهلة للرد:

- حسنًا.. سوف أحدثك في هذا فيما بعد ياحبيبتي.. قبِّلى الأطفال من أجلي..مع السلامة.

وأغلقت الهاتف بعدها على الفور.. كنت بداخلي أدرك أن هذا البيت يحوي لعنة ما.. أو شرًّا ما.. شرًّا يحاول أن يسيطر عليَّ، وأن يستعبدني لأعيش فيه.. شر عليَّ أن أقاومه وإلا عشت أسيرًا له للأبد.

ورحت أتلفَّت حولي في جنبات البيت الهادئ بريبة.. شعرت أن ابتسامةً ساخرةً واسعةً، ترتسم على جدرانه وأثاثه.. وسمعت بعقلي تلك الضحكة الساخرة تتردد خفية بين جدران البيت، بلا توقف.

وجدت نفسي أصرخ بكراهية، وأصرخ بصوت رددته الجدران القديمة:

- لا أعلم تلك اللعبة القذرة التي تلعبها ضدي أيها البيت.. لكنى لن أستسلم وسوف أتخلص منك.. سوف أبيعك رغما عنك!.

١٨

من مذكرات السيدة كوثر حلمى زوجة الأستاذ شاكر عبدالحميد

تغيَّر ابناي كثيرًا في هذة الأيام الأربعة التي غادر فيها أبوهما.. لم يعودا إلى تلك الشقاوة التي كانت من سيمائهما دائمًا.. صارا هادئين طوال الوقت، يكتفيان بقضاء وقتهما في حجرتهما واجمين.

في البداية ظننت أن هذا من بوادر مرض ما.. لكنهما كانا سليمين والحمد لله، ولم يشكوا من شيء ما..

وأتى إليَّ رامي، وكنت حينها جالسة على الفراش، أشاهد التليفزيون بحجرتي.. جلس بجواري بهدوء، قبل أن يسألني بحيرة وسذاجة:

- ماما.. أين ذهب جدي؟

ابتسمت له وقلت، وأنا أحتضنه وأقبّل جبهته:

- لقد ذهب إلى السماء ياحبيبي.. لقد ذهب للقاء الله.

- ولماذا ذهب وتركنا ولم يأخذنا معه؟

- لأنه يجب أن يقابل الله بمفرده.

- لكن جدي لم يكن قادرا على التحرك.. فكيف صعد للسماء إذا؟

صمت حينها للحظات، حاولت خلالها أن أنتقي كلماتي جيدًا.. إنه طفل وبالتأكيد لايعي جيدًا معنى الموت.. ولم أشا أن أصدمه بفكرته المجردة حينها.. لكنه ثبت عيونه الصغيرة اللامعة على وجهي، منتظرًا إجابة سؤاله، فقلت لأسكت فضوله:

- جدك كان طيبًا. يحبه الله فشفاه من مرضه، ثم طلب منه أن يصعد للسماء ليعيش معه هناك..

- هل يعني هذا أنه قد صعد بطائرة مثلاً؟!.

لم أجد من بأس أن أوافقه على خياله هذه المرة، فقلت باسمة وأنا أحتضنه:

- نعم ياحبيبي.. لقد صعد للسماء بالطائرة وكلنا سيفعل هذا يومًا ما..

- وهل هو سعيد بالسماء؟

- إنه سعيد للغاية ومسرور.. إنه يعيش هناك بالجنة.

صفق حينها رامي بكفيه الصغيرين في جذل.. وظل بعدها صامتًا مبتسمًا مفكرا، قبل أن يقول ثانية' بعد فترة تشاغلت خلالها بمتابعة ما يدور في التليفزيون:

- لكن إذا كان جدي سعيدًا في الجنة.. فلماذا عاد إلى هنا ثانية، ولماذا يبكي دائما؟

انتبهت إلى ما يقوله من كلام عجيب، فقلت له باهتمام:

- عاد إلى أين ياحبيبي.. ماهذا الذي تقوله؟

- لقد كان جدي معنا بالأمس في الحجرة، وكان يحدثنا وهو يبكي..

اقشعر جسدي فرقا مما يقوله، فقلت له مستفسرة، وأنا ألتفت إليه بجسدي كله:

- لابد أن هذا كان حلمًا.. أليس كذلك يا رامي؟. لقد رأيته في الحلم؟.

نظر في عيني للحظة مفكراً، ثم هز رأسه نفيا، وأجاب بعناد:

- كلا لم يكن حلمًا.. لقد كان جدي معنا وكان يبكي..

- وهل رآه عبدالحميد أيضًا؟

- نعم، وقد حدثه كذلك..

وكان هذا أكثر مما أحتمل.. راح قلبي حينها يدق بعنف، وأنا أندفع إلى حجرتهما، وأنادي عبدالحميد.. وقابلني في مدخل الحجرة، فأمسكته من ذراعه بقسوة، وقربت وجهي من وجهه، وقلت له بصرامة:

- انظر إلى عيني وإياك أن تكذب.. هل رأيت جدك بالأمس في الحجرة؟

لم يجِبني على الفور وبادل نظرتي المحذرة المنذرة، بأخرى عنيدة باردة لامبالية، رأيت فيها الإجابة التي لم أتخيلها.. ثم قال بعد ذلك بهدوء مستفز:

- كلا.. إن جدي قد مات.. فكيف يمكنه أن يعود ثانية؟

و جذب ذراعه بعدها من يدي ليبتعد عني..

كان يكذب.. أقسم أنه كان يفعل..

كانت عيناه تخبراني عكس ما ذكره.. كان يكذب لأول مرة في حياته، ولا أدري لماذا يفعل ويخفي عنِّي الأمر.. وأحسست أنني سأجن لو لم أعرف الحقيقة .

في المساء قررت ألا أنام وأن أراقب حجرتهما طوال الليل.. جلبت كرسيًا من الشرفة، وضعته خلف باب حجرتهما مباشرة وجلست بانتظار ما قد يحدث.. ومرَّ الوقت بطئيًا للغاية، ومع الرتابة والصمت الذي غمر البيت، لم أشعر بنفسي فنمت..

وفي الصباح هزني عبدالحميد من كتفي برفق، وهو يوقظني متسائلاً:

- استيقظي يا أمي.. لماذا نمتِ هاهنا؟

أفقت وانتفضت من المقعد على الفور، وأنا أرى شبح ابتسامة ساخرة تلوح على جانبي فمه.. لم أجِبه وتحاشيت النظر إليه، وأنا أتجه إلى غرفتي بحنق، وقد شعرت بافتضاح أمري..

هل شعر بمراقبتي له؟..

وناديت رامي وجسدي كله ينتفض ويرتجف، وأغلقت علينا باب الحجرة، ثم انحنيت نحوه راسمة أقصى نظرة مخيفة أمكنني صنعها، وقلت له:

- هل أتى جدك بالأمس ثانية؟

بدا التردد على عينيه للحظة.. لكنه أمام نظراتي الصارمة هز رأسه بصمت مؤكدًا، فازداد توتري، وقلت بصوت مخنوق، وأنا أجاهد كي لا أبكي:

- وماذا قال لكما؟

مرة أخرى تردد قبل أن يجيب:

- أخبرنا أنك بالخارج تراقبيننا، وطلب منا ألا نتحدث إليه.

واكتنفني دوار عنيف حتى كدت أن أسقط.. هل يرى ابناي شبح جدهما الراحل.. وماذا يريد منهما؟!!

تذكرت الظل المخيف الذي رأيته في حجرته من قبل، فشعرت بالهلع على ابنيّ.. ما الذي يجرى معهما ولا أعلمه؟.. ولماذا يخفي عنِّي عبدالحميد ما يحدث معه؟.. بل ومن أين استقى ذلك التحدى الذي يتقافز على ملامحه حين أحدثه..

لن أتلصص عليهما ثانية.. بل سأبيت معهما كل يوم، وحينها لو حدث شيء فحتمًا سأشعر به.. ولن أتركهما في أي لحظة.. سأظل أفعل هذا حتى يعود أبوهما ثانية وأخبره بما يجري، فيخبرني ما علينا أن نفعله..

وحاولت مرة أخرى الاتصال بشاكر.. لكن محموله ظل مغلقًا لليوم الثالث..

إنني أشعر بالرعب عليه وأخشى أن يكون مكروه ما قد أصابه هو الآخر.. لقد بتُّ أشعر أنني صرت طفلةً مذعورةً تائهة، تواجه ما تجهله، ولا تدري ما الذي عليها أن تفعله.

هل أطلب الشرطة؟ لكن ماذا أقول لهم؟

أم ترى أن عليَّ أن أذهب إليه بالبيت.. لكن أين يمكنني أن أترك ابنيّ، وكيف يمكنني أن أطمئن عليهما وهما يدّعيان أن جدهم الراحل يطاردهما ويزورهما؟!.

إنني بحيرة عظيمة..حيرة تدفعني للجنون.

وفي المساء كان عبدالحميد يرسم كعادته.. وجذب انتباهي ما يرسمه.. بيت قديم ضخم جعل لونه أبيضاً، وجعل نوافذه بيضاوية الشكل بستائر رمادية كما رسم سقفه مائلًا.. لاحظت كذلك أنه رسم برجًا مرتفعًا غريبًا خلف البيت..

وقلت له مقاطعة انهماكه في الرسم والتلوين وأنا التقط الرسمة من يده:

- ما هذا الذي ترسمه؟

- إنه بيت جدي.. إنني أرسمه. ما رايك؟.

- وهل رأيته لترسمه؟ أم أن جدك قد وصفه لك من قبل.

- إن جدي لم يصف لي شيئًا وأنا لم أرَه بالطبع.. لكنني أتخيله هكذا.. وأعلم أنه يشبه بيت جدي تمامًا.

كانت الرسوم دقيقة وتبدو حقيقية تمامًا.. رحت أتفقدها بحيرة لدقائق، وعبدالحميد يلحظ حيرتي وانبهاري بخطوطه بفخر.. ثم قلت له وأنا أشير بإصبعي للبرج الطويل:

- ولماذا رسمت هذا البرج؟

- لأن البيت به برج بالفعل.

وصمت للحظة، والتمعت عيناه بإثارة، وقال لي هامسًا:

- هل أخبرك بسر ما يا أمي؟

- بالطبع ياحبيبي، أي سر هذا؟

قلتها بحذر.. فأجاب على الفور:

- هذا البرج لايعلم أبي كيف يدخله ولن يعلم الآن.. إن له بابًا خفيًا، لايعرف أبي مكانه.

لم أدرى بما أرد عليه، وأنا لا أدرك هل ما يقوله من بنات خياله الواسع.. أم أنه يعلم ما نجهله.. فقلت له بمكر مصطنع:

- وأنت تعلم مدخله وستخبرني به.. أم تراك ستكتم هذا عن أمك الحبيبة؟

لكنه ابتسم ابتسامة ماكرة وقال بغموض:

- إنني أحبك بالطبع يا أمي.. لكني لا أقدر على إخبارك بمكانه.. إنه سري وحدي.

قالها وجذب أوراقه من كفي بسرعة، وابتعد عنّي كي لا ألح عليه..

لقد تغيَّر ابني كثيرًا.. وبدأت أشعر أنه طفل آخر لا أعرفه.. ترى ما الذي حدث له فغيَّره هكذا؟.. وهل أصابه مسٌّ شيطانى ما، أم أن روحًا ما قد تلبسته؟

ليتني أعرف..

كان عليَّ أن أبحث عن مساعدة ما، فعاودت الاتصال بزوجي.. هذه المرة أجاب.. سألته أن يصف البيت القديم، فصدمني بما قاله، وقد تيقنت من دقة الرسم الذي تخليه ابني للبيت..

إنني أشعر بالتيه. . إن هذا البيت ملعون شرير.. هذا ما بدأت في التيقن منه الآن، وكل عالمي من حولي يتداعى..

طالبت شاكر أن يتركه ويعود، لكنه أنهى الاتصال على الفور دون أن يعدني بشيء ما..

تركني ولم أخبره بما يجري لابنيه.. تركني أواجه كل تلك التساؤلات بمفردي..

أسألك يا إلهي الرحمة.. وأسألك أن تلهمني ما عليَّ أن أفعله.. فليس لي ملجأ سواك.

١٩

مضى الليل هذه المرة بلا أحداث مخيفة.. فلا أحلام أو رؤىً أو كوابيس.. هل كفَّ البيت عن ألعابه الشيطانية التي يمارسها معي؟.. أم هي استراحة قصيرة ينالها قبل أن يوجّه إلي الضربة القاصمة؟

من يدري؟!..

في الصباح تناولت إفطاري ثم اتجهت إلى الحديقة.. مازالت جرداء كما كانت.. بحثت عيناي عن السيارة فوجدتها بمكانها، فشعرت بالراحة.. هذا يعني أنني أعيش واقعي الذي أعرفه..

جلست بمقعدي الحجري الأثير أسفل خمائل الكروم، التي تيبست الآن وذبلت وإن ظلت جذوعها الباقية تصنع ظِلًّا ما على المقعد، وتحجب أشعة الشمس الملتهبة عنه..

مرت الساعة، وأنا أستمتع بالنسمات الباردة المنعشة، إلى أن رأيت أحدهم يقف خلف باب الحديقة ويشير إليَّ.. نهضت وأنا أتساءل من يكون، وتحركت نحوه..

كان بدينًا ذا كرش هائل وعجيزة ضخمة.. يرتدي بدلة من الصوف رمادية اللون، أسفلها قميص أبيض اصفرت ياقته المهترئة، وأطراف أكمامه المتآكله.. ارتدي كذلك رباطة عنق حمراء رفيعة للغاية، وصلت بالكاد إلى منتصف كرشه.. كان يحمل حقيبة جلدية سوداء ذهب بريقها.. وخمنت قبل أن أصل إليه من يكون..

فتحت له الباب فمد نحوي يداً بضةً، غليظة ومليئة بالعرق، وقال مبتسمًا:

- أستاذ شاكر عبدالحميد.. أليس كذلك؟

هززت رأسي مؤكدًا وأجبت:

- إنني هو.. كيف يمكنني أن أخدمك؟

- العفو يا أستاذ.. دعني في البداية أقدِّم إليك نفسي.. أنا محمود عبدالمقصود.. محامٍ ووكيل أعمال بعض رجال الأعمال المهمين هنا وفي القاهرة.

قلت له وانا افسح له الطريق ليدخل، وقد أدركت مقصده.. حتما قد أتي يبغي شراء البيت من أجل أحد عملائه.

- تشرفنا يا أستاذ محمود.. تفضل بالدخول.

تقدمني وعيناه تلتهمان المكان، وقال بصوته الغليظ:

- علمنا أنك ترغب في بيع هذا البيت العريق.. أعلم أنك تشعر بالأسى لأنك تفكر في بيعه.. بيت كهذا مليء حتما بالكثير من الذكريات العائلية ومن العسير أن يتركه المرء..أليس كذلك؟

كان هذا تدخُّلا غير مقبول منه فقلت باقتضاب:

- لا شأن للذكريات ببيعه.. إنني أبغي الانتفاع بثمنه وحسب.

هزَّ رأسه بتفهم، وعيناة تتجولان بالحديقة الواسعة، قبل أن يقول متساءلا:

- أرى أن الحديقة واسعة للغاية.. لابد أنها تتجاوز خمسة أفدنة.

- إنها عشرة أفدنه وليست خمساً..

أطلق صفيرًا طويلا منبهرًا، وقال وهو يشير إليها:

- هذا واضح.. لكن كما أرى فالحديقة مهملة للغاية.. حتمًا ستحتاج للكثير من الأموال كي تزدهر ثانية.

أعلم أنه يقول هذا ليبخس من ثمنها.. لم أعقب فمازلنا في البداية وهو لم يطرح ثمنًا للبيت بعد.. لننتظر حتي يأت وقت المساومة.

قال وهو يشير للبيت:

- البيت ضخمًا هو الأخر..إنه مبني بالحجارة كما أرى.. أليس كذلك؟

- نعم.. لقد بناة أحد أجدادي منذ مأئتي عام أو أكثر قليلا.

- آه.. إنه قديم بالفعل.. من حسن حظك ان وزارة الآثار لم تلتفت إليه حتى الآن، لكن أخبرني بصدق، ألاتوجد به تشققات أو انهيارات؟

قلت بنفاذ صبر:

- إنه سليم تمامًا وسترى هذا بنفسك.. البيت قوي كالأهرام.

وهزَّ رأسه الضخم مرة أخرى، وهو يتمتم:

- بالطبع.. بالطبع.. أنا لا أقصد الإساءة، إنني فقط أتساءل.

وعاد لصمته، وسرت خلفه حتى وصلنا لمدخل البيت فتقدمته، وقلت له بهدوء:

- معذرة يا أستاذ محمود.. لكنك لم تخبرني من هو موكلك الذي يرغب في شراء البيت؟

مسح جبهتة الممتلئة بالعرق، وأجاب وفمه ينفرج عن ابتسامة أظهرت أسنانه الصفراء:

- إنه عبدالفتاح بك العليمي.. لا أدري إن كنت قد سمعت به أم لا.. لكنك بالتأكيد قد سمعت بمجموعة العليمي للمنتجات الغذائية.. إنه صاحبها.

كنت أعرف عبدالفتاح هذا، وقد سمعت من قبل بالأقاويل التي تناثرت حول فساده.. لم يكن هذا يهمني في شيء.. لذا قلت له:

- إنني إعرفه بالفعل.. لكنك لم تخبرني لماذا يريد شراء البيت؟

توقف لحظة مفكرًا قبل أن تنفرج شفتيه عن ابتسامة باردة وقال:

- أعتقد أن سؤالك هذا لا يعلم إجابته إلا هو.. ولو كان البيت من حظه ووصلنا لإتفاق ما حوله، يمكنك أن تسأله حينها عن هذا بنفسك.

صمت شاعرًا ببعض الإحراج من إجابته الغامضة، ثم فتحت باب البيت له فدلفه بخطوات سريعة..

بدا منبهرًا بكل شيء يراه وراح يتفقد ويفحص كل شيء بدقة.. تحسس السجاد الإيراني الفخم بيده، وجذب الستائر الرمادية ليرى مدى قوتها، وراح يطرق بيده الحوائط والأبواب الخشبية.. ثم ذهبنا إلى المكتبة، ففغر فاه منبهرًا، وقال بسرعة:

- يا إلهي.. ما كل هذه الكتب.. إنني لم أرَ مكتبة مليئة بالكتب مثل هذه من قبل.

عقدت ذراعي أمام صدرى، وقلت له بهدوء:

- لقد كانت عائلتي دومًا من عشاق القراءة، ولقد جمعوا ما تحويه هذه المكتبة على مدار عقود طويلة.. إنها تحتوى كما ترى على الكثير من الطبعات الفريدة النادرة لبعض الكتب.. إن بعض المجلدات بها تساوي ثروة الآن.

غمغم، وهو يتحسس المجلدات الضخمة والكتب المكدسة في الأرفف:

- أرى هذا.. لكن هل تنوي بيع البيت بالمكتبة أم سوف تحتفظ بها.

كانت المكتبة فخمة ونادرة كما ذكرت له.. كما كانت تحوى الكثير من ذكريات أبي وأجدادي.. ربما من أجل هذا كنت لأحتفظ بها من قبل.. لكنني الآن وبعدما حدث لي في هذا البيت، لم أعد أرغب في الاحتفاظ بشئ مما به.. فقلت له باقتضاب:

- سوف أبيع البيت بكل مافيه.

بدت السعادة في عينه وأسرع يقول:

- هذا قرار حكيم بالفعل.. إن هذه المكتبة ستزيد من سعر البيت حتمًا.

قالها ثم جلس على كرسي أمام المكتب الضخم بالحجرة وأكمل وهو يتحسس المكتب الخشبي الفخم:

- دعني أكون صادقًا معك.. إن موكلي يرغب في هذة البيت ليعيش به.. لقد أعجبه موقعه واتساعه وعراقته.. إنه يرى أنه ببعض الاهتمام والتجديدات سيغدو المكان رائعًا.. إنني أؤمن الآن أنه كان على صواب تمامًا في ظنه.. فالبيت فعلاً بحالة رائعة.

- أشكرك لإطرائك.. هذا ما كنت أخبرك به .

نهض بعدها وراح يدور في كل مكان بالبيت معاينًا ومتفحصًا، ورحت أتبعه بصبر، وفي النهاية توقف أمامي في الصالة وقال مبتسمًا:

- أعتقد أنني رأيت كل شيء في المكان.. لكنني لم أرَ مدخلاً لذلك البرج الغريب في الخلف.

- للأسف ليس له مدخلٌ ما.. إنه للزينة فقط كما أعتقد.

تطلع إليَّ بحيرة ثم قال:

- هذا غريب حقًا.. كل هذا البرج الضخم من أجل الزينة فقط.. ربما.. لكن هل يوجد بالمكان شيء ما آخر لم أرَه.

وتذكرت المقابر التي دفن بها أجدادي.. كانت فى الجزء الخلفي من الحديقة خلف البيت، فقلت له:

- هناك شيء أخير.. فخلف البيت هناك بعض المقابر التي دفن بها أجدادي.. لقد رغبوا في أن يُدفَنوا في البيت فبنوا تلك المقابر.

بدا الانزعاج على وجهه، فغمغم بإحباط، وهو لايصدق مايسمعه:

- هذا يغيِّر الأمر كثيرًا.. لم أكن أعلم بهذا.

لأحظت التراجع الذي بان على وجهه فقلت له بسرعة:

- أرى أنه لا مشكلة في هذا.. سوف أقوم بنقل رفات أجدادي منها إلى مقبرة اشتريتها بمدافن القاهرة.. سوف يتم هذا حتمًا قبل أن أسلم البيت للمشتري لو تم البيع.

بان على وجهه التفكير والحيرة، قبل أن يقول بحماس أقل:

- حسنًا.. ربما كان هذا حلا معقولاً.. لكن هل يمكنني رؤية تلك المقابر من فضلك؟

- بالطبع.. هذا من حقك.

قلتها وقدته إليها، حيث توجد خلف المنزل في الجزء الخلفي من الحديقة.

كـان هنـاك خمسـة شـواهد رخاميـة علـى صـفين، ثلاثـة بـالخلف واثنـان بالمقدمـة كتب على كل منـها اسم جد مـن أجدادي.. وبينمـا راح هو يتأملهم بإعجاب كنت أفكر في أمر آخر..

لقد أوصى أبي بأن يتم دفنه هنا.. ولولا مرضـه وانتقالـه للعيش معي بالقـاهرة لـدفن هنـا بالفعل.. لـم أكـن أشـعر الآن بـأي رابـط يربطني بالبيت ولا بأجدادي.. لكني شعرت ببعض الحسرة لأنـي لم أنفذ أي وصية لأبي.. فلا دفنته بالبيت كما رغب، ولا عدت إليه لأسكن به كما وعدته، ولا حتى احتفظت به لأبنائي..

وطـردت خـواطري حين وجـدت المحـامي يقـول لاهثًـا.. وعرقـه مازال يحتشد على جبهته:

- هل أطمـع فـي أن تزودنـي بكـوب مـاء مـن فضلك.. إن مـرض السكر يجعلني في ظمأ دائم..

- بالطبع.. لحظه واحدة فقط.

قلتها واتجهت للبيت لأجلب له الماء، وعدت بعد دقيقتين فقط، لكني لم أجده بين الشـواهد كمـا تركتـه.. بحثت بعينـي فـي المكـان فلم أعثر لـه على أثر.. ترى هل غادر المكـان وأنـا بـالمنزل؟.. كـان أمرًا عجيبًا..

هممت بمغـادرة المكـان، لكنـي وقبـل أن أفعل لاحظت شيئًا مـا.. جزء من بدلـة رماديـة يبرز من خلف أحد قبور الصف الثـاني.. اقتربت بحذر لأجد البدلة الرمادية التي كان ذلك المحـامي يرتـديها وقميصـه بـل وملابسـه الداخليـة كـذلك ملقـاة خلـف القبـر.. قلَّبـت الملابس في يدي.. كانت سليمة تمامًا..

لماذا خلع ملابسه كلها وتركها هكذا؟ ..كان هذا السؤال الذي حيرني.. بحثت عنه في كل مكان بالبيت والحديقة فلم أجده.. هل كان الرجل مجنونًا ففعل هذا.. أم أن مكروهًا ما قد حدث له؟

توقفت أمام البيت ورحت أرمقه بشك وأنا أشعر أن له يدًا فيما حدث.. في النهاية صرخت فيه بحنق:

ـ ماذا فعلت بالرجل أيها البيت اللعين.

وجاوبنى الصمت فحملت الملابس في يدي ودخلته واجمًا..

٢٠

كان أبي غاضبًا.. هذا مابدا لي في البداية.. حاولت أن أكلمه أو أن أساله عن حاله، لكنه أشاح بوجهه بعيدا عنِّي، وكأنما لايرغب

في الحديث إليَّ.. هنا شعرت بالغضب، فأشحت بوجهي أنا الآخر بعيدًا عنه، وصرخت فيه بكل قوتي:

- أنا لم أجرم في حقك كما تعتقد.. من حقي أن أحيا الحياة التي أراها مناسبة لي، لا الحياة التي ترغبها أنت.. إنك من تظلمني بتعنتك هذا..

هنا بدأ أبي في الصراخ، وتعالى نحيبه.. رحت أرمقه بحيرة وإشفاق، وهو ينحني حول نفسه متكوما على الأرض في وضع جنيني.. رفع رأسه بعدها وراح يردد منتحبًا:

- ارحمني وأعدني إلى أجدادي.. ألاترى أنني أتعذب.. ارحمني يا ولد.

أخذ جسده يذوب حينها.. راح يذوب كقالب من الأيس كريم يذوب في جوف فرن مشتعل.. وراح يصرخ ويئن، وأشلاؤه تتفكك من بعضها البعض..

ودنوت منه، وأنا لا أدري ماذا أفعل من أجله.. وكيف أمنع ما يحدث له.. هنا اندفعت رأسه منفصلة عن جسده وجلدها مازال يذوب ويتلاشى، لتلتصق بوجهي وهي تصرخ:

-أنجدني أيها العاق..أنجدني وارحمني.

وصرخت برعبٍ، فأفقت. . كان حلمًا آخر من أحلام البيت التي لا تنتهي.. نظرت إلى الساعة فوجدتها الواحدة والنصف صباحًا.. مازلت إذًا في منتصف الليل.. نهضت من الفراش ووقفت أمام النافذة ورحت أرمق الحديقة الغارقة في الظلام بصمت.. عدت أفكر في المحامي البدين الذي جاء اليوم قبل أن يختفي تاركًا ملابسه كاملة.. هل أصابه مكروه ما.. وهل للبيت شأن فيما حدث له؟

كـان عقلـي البـاطن يعلـم الحقيقـة التـي أتمنـى أن أكـون مخطئـًا بشـأنها.. وخشـيت لـيلاً أن أقـع تحـت طائلـة القـانون بسـبب هـذا المحامي، لو جاء أحد إلـى هنـا وسـأل عنـه، فقمـت بـالتخلص مـن ملابسه كاملة، وأحرقتها قبل أن أنثر رمادها فـي الهـواء لتنتهـي تمامًا.. لو سأل عنه أحد فسأنكر أنني قد رأيته.

وبعد نصف الساعة عادت إلـيَّ رغبتـي فـي النـوم ثانيـه، فعدت للفراش، ثم نمت.

هذا المرة كان هناك أجدادي جميعهم. . هذا جدي منصـور وذلـك جدي بشتمر وهذا جدي عصمت، ولابد أن ذلك الضخم هو جدي طوسن، وذا الشعر الطويل هو جدي كامل.

كـانوا يرمقـونني بغضـب حقيقـي.. وكنـت أرتعد أمـامهم خوفـًا.. أشاروا بعدها جميعًا إلى قبر أعلمه جيدًا.. كان هذا هو القبـر الـذي اشتريته في مدافن القـاهرة وكـان أبـي أول قاطنيـه.. وقـالوا سـويًّا بصوت مخيف ارتجف له قلبي:

- أخرجه من هنـاك.. هذا ليس مكانـه.. قبره ينتظره بالبيت.

شـعرت بجفـاف شـديد بحلقـي، منعنـي مـن الـرد علـيهم، فقلـت هامسًا بصوت مخنوق تماما:

- لكنني قد دفنته هنا.

وعادوا يتحدثون سويًّا بصوتهم الرهيب:

- إذا أخرجه من هنـاك.. إنـه يتألم هنـا. ألا ترى أيها الشقي؟!.

وصرخت فيهم بعناد، مغالبا خوفى:

- لكنه ميت، والموتى لا يتألمون.

هنا تحرك نحوي جدي منصور.. استطالت يده التي طالما لطمتني حين أخطئ.. ولطمني على خدى، قبل أن يقرب وجهه مني، ويقول بصوته الغليظ:

- وما أدراك أنه لا يتألم ياولد؟.. هل دفنته بالبيت كما أمرك؟

كنت أنتفض بين يديه خوفًا وقلت باكيًا:

- لم يكن هذا ممكنًا..

هنا عاد جدي إلى مكانه بين أجدادي، وهتفوا مرة أخرى سويًّا:

- لقد خنت العهد.. أخرجه وأعده للبيت، أو تدفن مكانه.

سقطت على الأرض إعياءً.. وقلت لهم:

- لكنني لا أعرف كيف أفعلها..

هنا قالوا لي وهم يشيرون للقبر:

- اتبعنا وسنريك.

ابتلعهم الظلام وتبعتهم برعب.. سرت خلفهم مطاطئ الرأس حتى صرنا أمام قبر أبي.. نظرت إليهم بحيرة، فلطمنى أحدهم وقال لي آمرًا:

- احفر هاهنا ياولد وأخرِج أباك..

لم يكن هناك ما أحفر به فرحت أحفر بيديّ العاريتين.. رحت أحفر بجنون، ومن حين لآخر كان أحدهم يضربني ليحثنى على

الإسـراع.. كنـت أبكـي وقـد تسـلخت يـداي وأدميـت آصـابعي وأظفاري، لكنني ظللت أحفر بلا توقف.. في النهاية ظهر جسد أبي في كفنه بين الثرى.. فصرخوا بي من خلفي:

- أسرع يا ولد.. أخرجه من هنا.. إنه يتألم.. هيا أخرجه!!.

وأزلت عن جسده التراب حتى ظهر جثمانه كاملاً.. هنا توقفت ولا أدري ماذا عليَّ أن أفعل بعدها.. ولطمني جدي منصور مرة جديدة وصرخ في:

- لماذا توقفت ياولد.. هيا احمله واتبعنا..

حملته بخوف على كتفي.. لم يكن أبي ثقيلاً، لكنني كنت أترنح فزعًا مما يدور حولي.. فهذه المرة لم يكونوا بمفردهم.. كان هناك خلق كثير.. ولم يكن أيهم حيًّا.. كانوا جميعًا أمواتًا.. كنت أدرك هذا من وجوههم المشوهة وأطرافهم المتآكلة.. كنت أعلم هذا من عيونهم المتوهجة المشتعلة التي ترمقني بثبات.

كانوا يرتلون أغنية وحشية أثارت فزعي وهلعي.. وظللت أتبع أجدادي بفزع، ورحت أخترق الضباب الكثيف الذي كنا نسير فيه.. في النهاية عدنا للبيت القديم..

حينها التفوا جميعًا حول قبور أجدادي، وأشار جدي الأكبر طوسن بك الأرنؤوطي بيده نحو قبر سادس لم يكن موجودًا من قبل، وقال بصوت عميق:

- هذا مكانه.. لقد عاد لبيته..ضعه هاهنا ياولد.

هنا شق صفوف الموتى مارد عملاقٌ أسوداً، عاري الجسد تمامًا.. اتجه نحوى وبلا كلام حمل عنِّي أبي، واتجه به إلى القبر الجديد.. ظلت عيناي معلقة به، وهو يواري جسد أبي التراب،

والتراتيل الوحشية التي ترددها الأفواة الميتة لحشد الموتى تتعالى ثانية من حولي..

انتهى العملاق الأسود، ثم التفت إلي ورمقني بعيون واسعة مخيفة.. وفوجئت بهم حينها جميعًا ينظرون إليَّ.. توقفت أغنيتهم المخيفة وأغرقنا الصمت.. وجدتهم بعدها يرددون معًا في صوت واحد مرعب، وهم يشيرون نحوي:

- أنت التالي.. أنت التالي.. أنت التالي.

واتجه العملاق نحوي حينها بحركات آلية، كانما ينفِّذ أمرًا ما اعتاد على طاعته، فتراجعت أمامه للخلف.. وحانت مني التفاتة إلى المقابر فوجدت قبرًا جديدًا سابعًا قد أضيف للمقابر، لابد أنه كان من أجلي..

تضاعف الفزع في نفسي، فرحت أجري وأصرخ محاوِلاً الهرب منهم جميعًا، وراحوا مع العملاق الأسود يلاحقونني، وقبل أن يقبض عليَّ ذلك العملاق أفلتت من فمى صرخة حقيقية فاستيقظت على فراشي لاهثًا مرة أخرى..

كابوس جديد أخر.. لكني شعرت بألم مريع في كفي يديّ وأطراف أناملي. . رفعتهما أمام عيني لأرى الأصابع الدامية والجلد المتسلخ.. هكذا كانتا في الحلم.. وانتفضت من الفراش بفزع، وأضأت المصباح الكهربائي، ونظرت إلى يديّ الداميتين بحيرة وذهول.. نظرت إلى ملابسي فوجدتها معفرة بالتراب..

هذة المرة لم أكن أحلم.. وجدت نفسي أهرول مغادرًا البيت، ودون أن أبالي بالظلام، اتجهت إلى مقابر أجدادي.. كان هناك قبر جديد قد أضيف إليها.. أحصيتهم برعب لأتأكد فكانوا ستة.. اقتربت بنظري من القبر الجديد وعلى ضوء القمر الفضي

الشاحب قرأت الشاهد الرخامي الحديث.. كان عليه اسم أبي وتاريخ موته..

هذة المرة كنت أشعر بالفزع فرحت أنتفض، واعترى جسدي برد شديد..

تحركت مرتعشًا إلى البيت ثانية.. ولتجهت مباشرة إلى فراشي.. كنت أرتعد.. وكنت أهذي.. لقد جننت فعلاً.. ليس هناك تفسير آخر لما يحدث معي.. لقد جننت.

٢١

أحُلم آخر مايحدث لـي الآن ثانيـة، أم واقـع شـرير مريـر يهيمن على قدري ولافكاك منـه..

لقد تحولت حياتي في هذا البيت إلى كابوس متصل لا أفيق منـه إلا لأعود إليـه ثانيـة، أو ربمـا ألقـاني هذا البيـت اللعين فـي تيـه زمنـي لأغرق فيـه دون أمل فـي الخـلاص منـه.. إنهـا لعنـة البيت التي صارت تلازمني..

وجدت نفسي أستيقظ مرة أخرى وأنا شـخص آخر.. هذة المرة صرت طفلا صغيرا لايتجاوز العاشرة.

تجذبنى تلك الخادمـة السوداء مـن ذراعـي الضئيل، بكفٍّ غليظ أسود مخضب باطنه بالحناء نحو الحمـام لأستحم.. لا أدري لمـاذا أستسلم ليـديها ولا أقـاوم، لكـن النعـاس مـازال يـداعب أجفـاني، فأسير خلفها مترنحًا.

- أفـق يـا سيدي عصمت.. يجب أن تستحم قبـل الإفطار..هكذا أمرنـي جدك.

ومن عصمت هذا؟.. كـان الجواب سـهلاً.. لا بـد أنـه جد جدي.. هذا يعني أنني أعيش ثانية حياة أخرى لأحد أجدادي..

هذا البيت يعلم جيدًا كيف يدفعني للجنون..

في البداية شككت أنني لابد أن أكون فـي حلـم آخر.. لكـن الميـاة البـاردة التـي تسقط علـى جسدي حقيقيـة بلاشـك، بصـورة تطـرد الأحلام والكوابيس وتوقظ الموتى اعتراضًا.. ويلسـع المـاء البارد جسدي الدافئ، فأصرخ محتجًا:

- الماء بارد للغاية يا حمقاء.. لماذا لا تدفئينه.

لكنها تستمر في صب الماء فوقي بلا توقف ،وهي تجيبني:

- أنت تعلم أنها أوامر سيدي طوسن.. إنه يقول إنك قد صرت رجلاً وأن عليك أن تحيا وتتصرف كما يفعل الرجال.. إن الماء الدافئ للنساء فقط.. لكن الرجل الحقيقي يجب عليه أن يتعلم الجلد.

أي رجل هذا الذي تظنه هي أو جدي القاسي.. انظر إلى جسدي العاري وطولي.. بالتأكيد صاحب هذا الجسد لم يتجاوز العاشرة من عمره بعد.. لابد أن جدي الأكبر طوسن هذا كان معتوهًا ليرى أنني صرت رجلاً، لأنني قد بلغت العاشرة من عمري.

كان عذابًا حقيقيًا استمر لدقائق حتى انتهت الخادمة السوداء من غسلي.. لا أدري لماذا لم أشعر بالخجل حينها من أن تحممني امرأة غريبة عنِّي.. ربما لأنني لم أكن أحمل جسدي الذي أعرفه.. إنه في النهاية جسد ضئيل لطفل صغير.

ألبستني ملابسي وطيّبتي بعطر زيتي ذكي الرائحة، ثم طلبت منِّي أن أهبط إلى الأسفل بسرعة.. اقتربت من الدرج فسمعت الضجة الصاخبة لرجل يصرخ ويزعق، ويجاوب زعيقه مريعة لأنثى تتألم وتستغيث..

شعرت بالاضطراب فهبطت بضع درجات أخرى من الدرج الخشبي كي أتيح لنفسي رؤية أفضل.. رأيت أمامي رجلا ضخم الجثة للغاية، ذو لحية كثة، يرتدي جلبابًا فضفاضًا، وبيده سوط أسود طويل راح ينهال به على فتاة سوداء، صغيرة في السن كتلك التي حممتني منذ قليل..

كان يصرخ فيها بقسوة ،وهي تصرخ ألمًا مسترحمة إياه بلا رجاء:

- الرحمة ياسيدي.. بحق الله ارحمني.. لقد أخطأت ولن أفعلها ثانية.

هنا ينهال السوط على جسدها مرة أخرى، دون أن يرحمها الرجل، وهو يقول بقسوة:

- مثلك تستحق أن يأكل لحمها الكلاب.. الرحمة ليست لمن تخون البيت!.

يفرقع السوط في الهواء قبل أن يلاقي جسدها الضئيل، فيصدر فرقعة رفيعة مفزعة، ويتعالى صرخاتها.. وأشعر حينها بالغثيان والرعب.. يضربها ثانية بالسوط فتتكرر الطرقعات المخيفة فأنتفض فزعًا.. كان هناك جمع من النساء والرجال يشهدون ما يحدث، دون أن يجسر أحد منهم على التدخل.. لم أحتمل أن أشهد هذا الهول ووجدت نفسي أصرخ بفزع:

- اتركها أيها الوحش.. اتركها وارحمها.

يتوقف حينها السوط المنحدر نحو الفتاة في الهواء دون أن يكمل طريقه.. تنحبس أنفاس الجميع، والرؤس جميعها تشرئب نحوى.. حتى الفتاة المضروبة كفت هي الأخرى عن الصرخات، وحبست أنفاسها ترقُّبًا وذهولاً..

أرى العينين القاسيتين للرجل مصوبتين نحو عينيّ بثبات، وحاجبان كثان منعقدان بشدة وغضب.. أحاول أن أبعد عينيّ عن العينين المخيفتين المحدقتين بي دون أن أفلح.. أشعر بالدوار والفزع وكأنما تصيبني تلكما العينان بلهيب خفي يدميني..

هنــا يــتكلم الرجـل الضــخم بصــوته الأجـش المخيـف باســتنكارٍ ودهشة:

- ماذا قلت ياولد.. أنعتَّني بالوحش.. هل قلت هذا؟

تحتبس الكلمـات فـي حلقـى رافضـة فـي فـزع أن تغـادره.. ألمـح السوط الملتصق بيده الضخمة، وأتخيل الضربات القادمة نحو جسدي النحيل فأرتجف، ويكمل جدي صرخاتة الغاضبة، وهو يتقدم نحوي:

- تكلـم ياولـد.. أنعـتَّ جـدك بـالوحش مـن أجـل جاريـة تسـرق.. أخبرني لماذا فعلت؟

أتلعثم ويتواثب قلبي فزعًا، وتتوتر مثانتي راغبة في إفراع مابها رعبًا، وأنا ألحظ الشحوب المخيف لامرأة على أقصى يمينه، أخذت تنتحب في صمت:

- أنا.. أنا لم أقصد.. أنا..

- تعالَ هنا..

يتردد صدى دعوته لي للهبوط في جنبات البيت، كأنما كان البيت من ناداني.. أتمنى أن أثب الدرج لأعلى مبتعدًا عنه، لكنني مع ذلك أجدني أهبط الدرج ببطء محاولاً ألا أتعثر، وجدي ينتظرنى بلا تعجُّل دون أن يبعد عينيه عنِّي، حتى تمنيت لو ابتلعتني الأرض في تلك اللحظة.. وتعود الفتاة في تلك اللحظة للتأوّه ثانية بصوت مكتوم، كأنما تخشى أن ينتبه إليها، فيعود ثانية لضربها..

أقف على بعد أمتار منه مطرقا لأسفل.. لكنه لايتركني هكذا، ويهتف بصوته الغليظ الرهيب:

- اقترِب أكثر ياولد.. اقترِب مني.

أعاود الاقتراب حتى أصبح قبالته تمامًا.. يرفع وجهي المطرق لأسفل، بأناملٍ غليظةٍ قاسيةٍ وضخمة نحو وجهه، ويمد السوط الذي يمسكه نحوى داعيًا إياي لأن أمسكه، قائلاً:

- يومًا ما ستكون سيد البيت.. وسيد البيت لابد أن يكون حازمًا صارمًا.. هذة الجارية سرقتني وخانت البيت الذي يأويها ولابد أن تعاقب.. ألاترى هذا؟

لا أرد عليه والكلمات تهرب من رأسي، فيتعالى صوته قائلاً بغضب:

- أجبني ياولد.. أليس جزاؤها أن تُعاقَب.. أمسك السوط وتكلم.

ألتقط السوط بيد ترتعش وأهز رأسي برعب مؤيدًا ماقاله، ومجاهدًا دموعي ألا تنسال على خدي.. فيصيح بي بظفر:

- إذًا اضربها كي تعلم خطأها..

أشعر بثقل السوط في يدي، ولا أقدر أن أفعل.. فيصرخ في وجهي:

- اضربها ياولد كي تعلم كم أخطأت.

هنا أقول ودموعي تبدأ في الانحدار:

- لا أستطيع..

يرى دموعي فيشتاط غضبًا.. ويتحول مرة أخرى لوحش ثائر:

- أتبكي يا ولد.. ألم أخبرك أن البكاء للنساء فقط. ستعاقب أنت الآخر لهذا.. هيا أتبعني للبرج.

يقولها ويجر الفتاة من شعرها نحو مدخل البرج، فتصرخ مجددًا ملتاعة.. أرى الفزع على العيون المحدقة بنا ومن بعيد أسمع همهمة خافتة حتمًا لم تصل لأذن جدي:" ليس البرج.. ارحمها بالله عليك".

وأحس بالفزع من ذِكر البرج.. لا أذكر أن البيت كان يحوي بابًا للبرج.. هل كان موجودًا من قبل وتم إخفاؤه بصورة ما؟

أتبعه إلى باب خشبي صغير بجوار المدفأة الحجرية.. لم أرَ هذا الباب من قبل ولا أعلم بوجوده..أرى درجات سلم حجري ترتفع لأعلى مغمورة بالظلام.. ويجذب جدي الجارية الملتاعة من يدها بلا رحمة، ويأمرني أن أتبعه.. أصعد الدرج المظلم وأحاول ألا أتعثر في الظلام.. في النهاية أصل إلى قمة البرج.. وأضاء المكان ضوء قرمزي عجيب من مكان مجهول فور دخولنا.. ورأيت الغرفة التي تعلو البرج، مربعة وفسيحة بصورة لم أتخيلها.. لم يكن بها أي أثاث..

وكان هناك ذلك التمثال الحجري البشع الذي يتوسط المكان.. ويضع جدي الجارية أمام التمثال، ويقول بصوت متضرع:

- قسمتك يامولاي فيما أملك!.

تفقد الفتاة وعيها رعبًا، وأنا أستعد كي ألحق بها هلعًا.. يطرق الرجل رأسه بخشوع أمام التمثال ويصمت بترقب..

فجأة تستدير رأس التمثال المخيفة نحوه.. ويرتفع صوت مخيف لا أدري إن كان التمثال من يصدره أم أنها الجدران نفسها:

- أوفيت العهد أيها البشري، فلك منا الحماية والأمان.

ينبعث بعدها في المكان ضباب رمادي من مكان خفي لا أدري مصدره.. وتتعالى أصوات غامضة وزمجرات وحشية.. وكان آخر ما رأيته عملاقًا أسود برز من بين الضباب وانحنى نحو الفتاة.. بعدها لم أستطع أن أظل صامدًا بوعيي أكثر من هذا ففقدته.

٢٢

جلست على فراشي لاهثًا وعرق غزير يتصبب من جسدي كله.. ورحت أستعيد ما رأيته في حلمي الأخير.. البرج الغريب والتمثال المخيف والعملاق الأسود.. أغمض عينيي وأعبئ صدري بالهواء محاولاً أن أستعيد رباطة جأشي، ثم أفتح عيني ثانية لأجد أبي جالسًا على حافة الفراش بجواري يرمقني بوجهٍ جامد.. واحبس أنفاسي الذاهلة ثانية، وأنا لا أدري إن كنت مازلت أسير حلمي أم أن ما أراه حقيقة أم أنني أتوهم هذا وقد فقدت عقلي..

أسمعه يقول لي دون أن تنفرج شفتاه:

- لقد اقتربت وعلمت.. ابحث عن باب البرج وهناك تجد الإجابات..

أرمقه بذعرٍ، وأنا لا أعي كيف يتحدث دون أن يفتح فمه.. لكنه يستمر في حديثه، ويكمل:

- جدد الميثـاق يـا بنـي وأطـع البيـت يرعـاك.. جـدد الميثـاق وإلا فالويل لك..

ويبتسم هذة المرة.. وأرى فمـه وقـد تبـدل إلـى ثقـب أسـود أخـذ يتسع ليملأ وجهه كله، ثم يكمل اتساعه ليبتلع كل ماحولـه ويتجـه نحوي، كأنما يريد أن يبتلعني أنا الآخر.. أقفز من الفراش مبتعدًا وأصرخ هلعا، فأسقط على الأرض وتصدم رأسي بها..

وأستيقظ مرة أخرى..

حلم آخر بداخل الحلم الأول.. لقد سئمت كل هذا العبث.. ألا يملّ هذا البيت مني؟

٢٣

استيقظت في الصباح دون أحلام أخرى.. نظرت إلى الساعة العتيقة بجواري.. كانت العاشرة صباحًا.. كنت أشعر بمطارق خفية تضرب رأسي بإصرار محيلة الصداع إلى محنة لاتنتهي.. من سوء حظي أنني لم أجلب أي مسكنات للألم.. لذا فكرت في بعض القهوة..

اتجهت نحو المطبخ لأجد كوبًا من القهوة الساخنة على المنضدة بانتظاري.. لم أشعر هذة المرة بالدهشة.. التقطت الكوب ببساطة ثم جلست على أحد مقاعد المنضدة وبدأت في تناوله ببطء.. ورحت أستعيد بذاكرتي كل ما مررت به في هذا البيت.. قفز إلى مخيلتي ذلك التمثال الغريب الذي رأيته في حلمي الأخير.. كان مخيفًا عجيبًا.. الغريب أنني لم أعِ تفاصيل ذلك التمثال ولو طُلِبَ مني أن أصفه لما استطعت، فقَط كان مخيفًا كأقصى ما أتخيل..

ماهذا التمثال بالضبط ومن جلبه، ولماذا كان بالبرج؟

تذكرت العملاق الأسود.. لقد رأيته ثانية.. كانت المرة الأولى حين دفنت أبي.. والمرة الثانية كانت بالأمس حين التقط الجارية السوداء من جدي الأكبر.. ما حكايته هو الآخر ومن يكون؟.. وثب خاطر مفزع إلى قلبي فارتجفت.. أيكون ماردًا أو عفريتًا.. يقولون إنهم يكونون في الأحلام هكذا.. أيعني هذا أنني قد أكون ممسوسًا؟

ارتجفت من هول الفكرة، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم..

تذكرت حلمي الثاني.. حين رأيت أبي وهو يخبرني أن الجواب بالبرج.. لم أعلم من قبل أن البيت يحوي بابًا للبرج.. لكنني في الحلم رأيت بابًا خشبيًا صغيرًا يجاور المدفأة ويؤدي للبرج.. لم تحوِ المدفأة من قبل أبوابًا بجوارها.. أكان هناك باب من قبل بجدارها وتم إخفاؤه بعد ذلك لسبب ما؟.. ربما كان هذا ماحدث.

أنهيت قهوتي شاعرًا ببعض الانتعاش، وبدأت نوبات الصداع المخيفة تنحسر شيئًا فشيئًا عن عقلي.

واتجت مباشرة للمدفأة.. كان بجوارها جداران من الحجارة.. تحسست بيدي الجدارين دون أن أجد ما يريب فيهما.. ربما كنت واهمًا.. لكن هاتفًا بداخلي أشعرني أن هناك بابًا بالفعل.. طرقت بيدي على الجدار الذي رأيت الباب فيه بالحلم.. كان الجدار مصمتا.. جربت الناحية الأخرى ومرة أخرى شعرت بالجدار المصمت.. توقفت في النهاية أمام المدفأة، مفكرًا فيما عساي أن أفعله بعد ذلك..

فكرت للحظة أن أتجاهل الأمر برمته، وألا أواصل بحثي عن هذا الباب المزعوم.. لكن عقلي كان مصممًا على استكشاف الأمر، وذلك التمثال المخيف والعملاق الأسود لايفارقان مخيلتي..

تذكرت أن هناك مطرقة كبيرة وإزميلاً في الحديقة فذهبت إليها لجلبهما وعدت.. توقفت للحظات بعدها أمام الجدار مفكرًا إن كان يجب عليَّ أن أكمل ما أنتويه، معرِّضًا هذا الجدار للتشوه مما سيؤثر بالتأكيد على ثمن البيت حين بيعه.. لكني تجاهلت الأمر وبدأت في طرق الجدار بالإزميل والمطرقة..

بعد نصف الساعة كنت قد نجحت في إزاحة بعض الأحجار عن الجدار.. توقفت للحظة لأستريح، ريثما ينزاح الغبار الذي انتشر

حول المكان.. وبعد دقيقة رأيت الباب.. كان جزء منه قد ظهر جليًا بعد أن انزاح الغبار..

شعرت بالحماس فعدت لإزاحة الأحجار ثانية.. وبعد نصف ساعة أخرى كان الباب أمامي كاملاً، وقد أزلت تمامًا الأحجار التي كانت تخفيه، وتركتها متراكمة بجواره..

رحت أرمق الباب متسائلاً بدهشة، لماذا تم إخفاؤه بهذا الجدار ومن قام بفعل هذا؟.. رحت أعتصر ذهني إن كنت قد عاصرت وأنا صغير هذا الباب أم لا.. لقد كان هذا الجدار الحجري موجودًا في كل وقت منذ صرت أعي مايدور حولي بالبيت.. لكنني لمحت قوائم حديدة أسفل الجدار ففهمت اللعبة.. كان هذا الجدار يتحرك بطريقة ميكانيكية.. وحتمًا كانت هناك وسيلة ما أجلها الآن لتحريكه والوصول لباب البرج دون تحطيم الجدار.. لم أعر الأمر كثيرًا من الاهتمام ورحت أفكر فيما سأفعله بعد ذلك

دفعت الباب الخشبي، فقاوم للحظة، قبل أن ينزاح للداخل مُصدِرًا صريرًا صاخبًا..

تطلعت لما خلفه فلم أرَ إلا الظلام.. لابد أن الدرجات الحجرية الصاعدة لأعلى البرج تختفي خلف هذا الظلام.. تذكرت ماحدث لي مع جدي حين ارتقى هذا البرج وانتابني شعور غامض أنني سأجد التمثال الغريب بالأعلى..

لكن، وقبل أن أصعد يجب أجد مصباحًا ما.. ذهبت للمطبخ وأحضرت منه مصباحا زيتيا وعدت للباب ثانية، وبتردد قليل دلفته.. بالفعل كانت هناك الدرجات الحجرية الملتوية التي شقت طريقها نحو قمة البرج..

كنت أخشى الخفافيش وخفت أن أصادف بعضهم، لكن من حُسن حظي أن هذا لم يحدث.. كان المكان نظيفًا وإن ميَّزَتْه

رائحة عطنة بعض الشيء.. انتهت الدرجات الحجرية إلى الحجرة الواسعة التي رأيتها في حلمي..

كانت مظلمة لكنها أضاءت فجأة كالسحر حين مست قدماي أرضيتها الخشبية، بذلك الضوء القرمزي الغريب.. بحثت بعيني بسرعة عن مصدر ما لهذا الضوء فلم تعثر عيناي على شيء.. كان الضوء يأتي من كل مكان ويذوب في كل مكان.. بدا أن مصدره ذرات الهواء نفسها..

هنا انتبهت إلى التمثال الحجري الغامض.. بدا في المنتصف ساكنًا سكونًا منذرًا.. بدأ قلبي في التقافز توجسًا وقلقًا، وبدأت أنفاسي تضيق.. اتجهت إليه بخطوات مرتجفة، وأنا أتوقع أن يتحرك رأسه في أي لحظة ناحيتي كما حدث في الحلم.. لكنه ظل كما هو ولم يتحرك..

كان مخيفًا بحق.. وجه عجيب بقرنين على جانبي الرأس، وعيون طولية كعيون الزواحف منحوتة ببراعة وفم غليظ الشفتين.. تمثال بشع لايختلف كثيرًا عن التماثيل الوثنية، التي تراها في الأحراش الإفريقية عند القبائل الهجمية.. بدا التمثال حقيقيًا تمامًا ووجدت صعوبة في أن أتخيل أنه منحوت.. كان سطحه أملس تمامًا بلا خدش واحد.. وكانت يدا التمثال التي تلتصق بجسده تنتهي بمخالب سوداء طويلة..

كان التمثال مخيفًا، وإن وشى ببراعة متناهية في نحتة.. ما سر هذا التمثال ولماذا احتفظ به أجدادي هاهنا في البرج؟!

شعرت أن الإجابة مخيفة وقد لا أحبها، أو أرغب في معرفتها.. هل كان أجداي وثنيين يعبدون هذا التمثال.. كانت فكرة حمقاء بالفعل وأنا أتذكر أبي القارئ الدائم للقرآن وجدي من قبله.. ربما كانت القسوة من سمات عائلتي وأبي منهم، إلا أن الإلحاد والوثنية ليسا من تراثنا بالتأكيد..

دارت عيناي بالمكان ثانية.. كان المكان فسيحًا، خاليًا من الأثاث وبدت جدرانه مصمتة بلانوافذ أو فتحات.. وفي أحد الأركان رأيت ذلك الصندوق الخشبي.. بدا غريبا ومملوءًا بالأسرار.. كان صغيرًا، وكان مزخرفًا بنمنات منحوتة بجدارة ذات أشكال غامضة أشبه بالطلاسم.. اتجهت إليه وأمسكته بين يدي متأملاً، ثم وضعته أرضًا ثانية، وجلست إلى جواره قبل أن أفتحه.. كان يمتلئ بأوراق كثيرة صفراء ومكتوبة بخط اليد.. أخرجت جزءًا منها ثم قرأت المدوَّن على الورقة الأولى.. كان مكتوبًا عليها "طوسن بك الأرنؤوطي"

كان هذا جدي الأول كما أعلم فأنا من عائلة الأرنؤوطي.. ومرت عيناى بسرعة على الورقات الصفراء الكثيرة.. كانت مذكرات كتبها أجدادي.. وجدت نفسي أجلس القرفصاء، وأبدأ في قراءتها متسائلاً هل تفسِّر لي الأمر!.. لنرى..

٢٤

كتب "طوسن بك الأرنؤوطي"

لم يسترح أي منا نحن المماليك في يوم من الأيام، إلى ذلك الألباني الماكر الذي جاء إلى مصر على رأس فرقة ألبانية مؤلَّفة من ثلاثمائة فارس، لمحاربة الفرنجة الفرنسيس، وذلك عام ١٨٠١، ولم يرَ أحد منا دورًا بطوليًا قام به في محاربة الفرنسيس لدحرهم وإجلائهم عن مصر.. فنحن المماليك بقيادة مراد بك ومن بعده الألفي بك وبمساعدة الإنجليز والأهالى الشرفاء قمنا بالأمر كله.. حاربنا ببسالة، واصطدمنا بهم عشرات

المرات، فشتتنا جمعهم، ولم يكن أمام الفرنجة إلا الخروج من مصر هاربين من بأسنا، مولين الأدبار..

وانتظرنا أن يعود ذلك الشاب الذي لم يسترح أحد منا له مرة أخرى إلى بلاده، إلا أنه استمر وفرقته في مصر بحجة مساعدة الوالي العثماني في إعادة السيطرة العثمانية على مصر، ومحاربتنا نحن المماليك أصحاب البلد الأصليين، والذين تحملنا العبء الأكبر في الزود عنها لقرون عديدة، وبدلاً من أن ترد إلينا ثانية فوجئنا به في عام ١٨٠٥ وبمعاونة الأهالي والزعماء المصريين الذين نجح في خداعهم ومكر بهم، أن يصير واليًا على مصر..

لم يرضنا هذا الأمر وحاربناه بقيادة الألفي بك.. لكنه كان داهية بحق واستطاع تثبيت نفسه في حكم مصر، وخاصة حين فشل الإنجليز في احتلال مصر بقيادة فريزر الأرعن..

ليته نجح في دحره حينها لنستريح من شره للأبد!.

استمررنا في القيام بحملاتنا المنتظمة ضدة متخذين من الصعيد قاعدة لنا.. أبلينا بلاءً حسنًا وكبدناه خسائر كبيرة، لكن شيئًا مما فعلناه لم ينجح في القضاء على حكمه تمامًا وإن كاد هذا أن يحدث في إحدى المرات..

في النهاية بدا الأمر أنه لا أحد منا بقادر على إزاحة الآخر تمامًا وللأبد، فأرسل إلينا برغبته في صنع هدنة بيننا وتصالح، على أن نكون تحت حكمه وأن نصير قادة جيوشه وحرسه..

كان الرجل داهية، ومن دواعي الأسف أن الكثير منا ملّوا الحرب ومالوا للترف والأموال التي استمالهم بها ذلك اللئيم، فوافقوا على الهدنة، وبقى القليل من الحكماء بالصعيد، وظلوا

متوجسين من الوالي الألباني، متوقعين الغدر منه، مثل إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن ورجالهم..

لكني كنت من الحمقى الذين لبوا دعوته وقد ندمت على ذلك فيما بعد..

وفي الأول من مارس لعام ١٨١١ الموافق السادس من صفر لعام ١٢٢٦ لتقويمنا الهجري، دعانا الوالي محمد علي مع جميع المماليك إلى القلعة ،مدعيًا أنه يقيم حفلًا لتوديع الجيش المصري الخارج لمحاربة الوهابين بأمرٍ من الباب العالي..

توجس البعض من الدعوة وظنوا بها السوء، وصدقت الأكثرية أن الدعوة ليست من قبيل الخداع.. وكنت من المتأخرين الذين لم يلبوا الدعوة..

وفي المساء وصلت الأنباء إلى أنحاء المحروسة بما جرى في القلعة من أعمال خسيسة ،وبما سال من دماء نفيسة، وما قام به ذلك المخادع من مذبحة حقيرة بحق المماليك جميعًا.. قالت الأخبار المشئومة أن جميع المماليك قد لقوا مصرعهم في وقت قليل، بعد أن غدرَ بهم الوالي فصبَّ عليهم نار حرَّاسه، ومن نجا من نار بنادقهم مات بسيوفهم..

بالطبع علمنا بعد ذلك بنجاة أمين بك صديقي الذي نجح في القفز من فوق سور القلعة بجواده، قبل أن ينجح بالفرار عبر الصحراء نحو بلاد الشام..ونجوت أنا الآخر..

لم يكن هناك من وقت أمامي وقد علمت أن الأمر لم ينتهِ بعد.. فالوالي الغادر حتمًا سوف يهبط بجنوده لمساكن هؤلاء المماليك للقضاء على من بقى منهم.. كان حدسي سليمًا للغاية، فطوال أيام ثلاثة سادت الفوضى في كل مكان، ومات من المماليك وأهاليهم

المساكين أكثر من ألفِ مملوك، وقد نُهِبَت دورهم ومساكنهم، وشرد أبناؤهم وسيقت زوجاتهم سبايا للوالي..

اتجهت بأهلي وبما استطعت حمله من أموال وجواهر على ظهر قارب متجهًا إلى الصعيد.. فمازال هناك مأمنٌ لنا ولو إلى حين، واتخذت الطريق النهري بالرغم من بطئه لأنني كنت أخشى أن يصلوا إليَّ لو اتخذت طريقًا بريًا..

سار القارب في النيل أول يومين آمنًا، وابتعدنا كثيرًا عن القاهرة، وظننت أننا قد نجونا.. لكن اليوم الثالث حمل إلينا الأنباء السيئة.. كانت هناك سفينتين صغيرتين محملتين بالجنود والعتاد، في بحث عمن عساه قد اتخذ النيل مسلكًا له ومأوى ومهربًا..

كان قاربي صغيرًا وكان الأبناء والزوجة في أسوأ حال.. وعلمت أنني لو ظللت على متن القارب، فسوف يصلوا إليَّ بسفنهم القوية بعد فترة قصيرة، فقررت الهبوط إلى الشاطئ محاوِلا الهرب.

وأدركت أن الملاعين الذين يطاردونني كانوا قد رأوني بالفعل.. لكن الضباب الذي كان انتشرا فجأة بصورة عجيبة قد أخفاني عن عيونهم ثانية.. لكني أعلم أنه ريثما يختفي الضباب فسوف يصلوا إليَّ حتمًا، وخاصة وأني كنت أسمع أصواتهم تصل إلينا من قريب..

اتجهت بقاربي نحو أقرب شاطئ وترجلنا.. كانت الأرض التي هبطنا فيها جرداء مليئة بالحصى والمستنقعات الغير مأهولة.. لكننا بعد مسيرة أمتار قليلة مبتعدين عن الشاطئ وجدنا الكوخ فلجئنا إليه واختبئنا به.. فلم يكن من مكان نهرب إليه غيره..

انقشع الضباب ومن نافذة الكوخ رأيتهم يتجهون بجنود كثيرة نحونا.. فبكى الأبناء والنساء، وارتفع عويلهم، وحاولت التماسك أمامهم لأثبتهم لكني في قرارة نفسي كنت أدرك أنها النهاية..

قررت توديع الأبناء والاستعداد للموت، وشهرت سيفي كي أموت مقاتلاً كما يليق بي..لكن الله شاء لنا حظًا آخر..

خرجت إلى خارج الكوخ ثم لم أدرِ ماذا حدث بعدها.. فما جرى كان عجيبة من عجائب الدهر والأقدار..

مرة واحدة وجدت نفسي وحيدًا أمام تمثال مخيف بقرنين أعلى رأسه وعيون مشتعلة كأنها الجمر، وكان يتكلم.. كنت مرعوبًا ولا أرى بعيني مهربًا منه.. لكنه طمأنني، بل ووعدني بالحماية والأمان لي ولأهلي..

أخبرني أنه قد اختارني سيدًا للبيت الذي يقع الكوخ مكانه.. علمت منه أنه بوابة الخروج لسيد الظلام من مملكته الخفية حين يحين وقته.. وأمرني أن أعيش وأبنائي وأحفادي في البيت دائمًا.. وأن نظل نرعاه ونهتم بشأنه، على أن يقوم هو الآخر برعايتنا وحمايتنا..

كان علَّي إن قبلت ما يعرضه عليَّ، أن أضع التمثال الذي يسكنه سيد الظلام أعلى البرج، وأن أجلب له كل حين أضحية بشرية..

لم يكن أمامي إلا القبول، أو الموت بيد الأعداء مع أسرتي، فوقعت عقدًا بيني وبينه بدمي.. وكان ميثاق الدم هذا يربطني وذريتي أبد الدهر بسيد الظلام..

وأفقت لأجد عشرات الجثث الممزقة للجنود الذين كانوا يتبعونا أمام الكوخ.. كان هناك عملاق أسود يمزقهم ويشتتهم بسيفه.. وعلمت فيما بعد أنه خادم البيت..

اختفى الكوخ فجأة وكان هناك البيت مكانه في شيءٍ عجيب كالسحر.. طمأنت الأولاد والزوجة واستقررنا منذ حينها بالبيت.. وصار مأوانا للأبد.

لم يكن جلب الأضحية البشرية كل حين للتمثال أمرًا عسيرا، فدومًا كان هناك العبيد والأغراب وعابري السبيل.. ولم أشعر يومًا بالأمان والطمائنية كما شعرت في هذه الأيام داخل البيت.. لقد قدَّم البيت لنا المأوى والأمن الذي لم أعرفه طوال حياتي الشقية، كمملوك مقاتل..

لقد قررت أن أفي بالعهد دومًا، وفي الوقت المناسب وقبل أن أموت سيكون ابني (بشتمر) هو التالي من بعدي، وعليه هو الآخر أن يورِّث الأمر لأبنائه وأحفاده..

لقد حمى البيت الأجداد ولولاه ماكان هناك أحفاد.. فالفضل كل الفضل لله الذي ألهمني لهذا البيت ورزقني إياه.

٢٥

انتهت كلمات جدي الأكبر.. فشعرت بالرعب مما علمته، ورحت أختلس النظر إلى التمثال المخيف الذي ظل منتصبًا ساكنًا كما هو.. لقد كنت أشعر دومًا أن البيت يحمل سرًا ما، لكني لا أستطيع تصديق أن هذا البيت هو بوابة خروج أحد الشياطين للأرض، ولا أتخيل أن هذا التمثال البشع هو مأوى له.. كان هذا أقوى مما أحتمل..

انتقلت إلى أوارق أخرى.. كانت كلمات موجزة قصيرة لجدي التالى بشتمر:

"لقد خدمت البيت كما أمرني أبي وقد أدركت فضله علينا، وكيف أنعم علينا بالحماية فلم يقدر أحد على إلحاق الأذى بنا مذ جئناه ضعافًا وعشنا في كنفه.. لقد رأيت وأنا صغير كيف حمانا البيت من شر جنود محمد علي باشا وكيف قضى عليهم.. ولهذا صرنا ندين له بأرواحنا من يومها.. واليوم وأنا أرى النهاية التي لابد بها، والتي أراني سيد الظلام بوادرها في حلم جمعني به، سوف أنقل السر إلى ابني عصمت..

لقد كبر الولد وصار رجلاً وأهلاً لأن يحمل السر ويجدد الميثاق..

إنني وقبل أن أمضي حيث مضى الأباء والأجداد من قبل، لأتمنى من كل قلبي أن ينجح ولدنا عصمت في القيام بواجبه نحو البيت وأن يدرك دومًا أننا صرنا والبيت وحدة واحدة لاينبغي لها أن تنفصل."

انتهت المذكرات القصيرة التي كتبها جدي بشتمر..

إذًا فهو الآخر قد حافظ على العهد ولابد أنه استمر حتى مماته في تقديم القرابين البشرية لذلك الثمثال المخيف.. تزايد النفور والجزع بداخلي لكنني تابعت القراءة.

نظرت إلى الوريقات التي تليها.. كانت هناك مذكرات قصيرة أخرى كتبها جدي عصمت..

- كثيرة هي القرابين التي قدمتها لسيد البيت.. وكثيرة هي العطايا والنعم التي منحنا إياها..

لقد امتلأ المكان الآن بالفلاحين حول البيت فُزرعت الأراضي الكثيرة وعُمرت المستنقعات المهجورة.. لكننا ظللنا دوما السادة هنا.. كل شيء نملكه وكل مخلوق هنا نحكمه. وكل هذا بفضل البيت.

حاول بعضهم في ليلة ظلماء أن يسطو على البيت وأن يهتكوا حرمته، لكن جثثهم المعلقة على أشجار النخيل، والتي وجدناها في الصباح، كانت درسًا مثيرًا وقاسيًا لمن تسول له نفسه يومًا ما أن يفعل شيئًا مماثلاً..

لم يكن أي منا من فعل بهم هذا، لكنه كان البيت وهو يرعى ميثاقه..

لقد حانت الآن اللحظات التي لابد منها واقترب أجلي، وكان لزامًا عليَّ أن أنقل الميثاق والعهد إلى ابننا كامل، ليصير سيدًا وحارسا للبيت كأجداده، وليحافظ على المنة التي أنعم الله علينا بها.. وفقه الله في هذا وأعانه."

وانتقلت بعدها لمذكرات جد آخر..

جدي كامل..

" لا أصدق أننا نعيش في بيت يحكمه الشيطان، بل ونقوم فيه بخدمته.. ولا أدري كيف نقف بين يدي الله كل يوم في صلاتنا نسأله الرحمة والمغفرة، ونحن خُدّام عدوه.. وإلى متى علينا أن نقوم بهذا الأمر البغيض.. لقد قدمت خمسة قرابين بشرية إليه حتى الآن، ولا أظن أنه سوف يكتفي بها، وحتمًا سيرغمني على تقديم قرابين أخرى..

لا أدري كيف نبرأ من ميثاق الدم هذا الذي أبرمه جدي مع سيد البيت.. لكنني لم أعد أحتمل القيام بالأمر.. لقد بحث في الكتب القديمة عن علاج ما للفكاك من أسر البيت دون جدوى.. وجلبت الكثير من كتب السحر العربية القديمه وأخرى مكتوبة بلغة الفرنجة القديمة المسماة اللاتينية.. لكن أيًا منها لم يفدني كثيرًا في مسعاي..

فكرت أحيانًا كثيرة في هجر البيت والهرب بأبنائي بعيدًا.. لكني دومًا كنت أخشى انتقام سيد الظلام.. لقد سلَّمت الأمر قبل مماتي إلى ولدي منصور كما ينبغي أن يتم الأمر، فجدد الميثاق الدموي.. وإن كنت أتمنى أن ينجح هو فيما فشلت فيه ويتخلص يومًا من لعنة هذا البيت وميثاقه الملعون."

وتركت الورقة التي تحمل المذكرات القصيرة التي دوَّنها جدي كامل..

إذا كان هو من جلب تلك الكتب القديمة التي تعمني بالسحر والموجودة بالمكتبة.. لقد رفض الرجل أن يستمر عبدًا للبيت وميثاقه الملعون ولما فشل ترك الأمر لأبنائه.. رحمة الله عليك ياجدي.. ليتك أفلحت.

وكانت المذكرات التالية ممهورة بتوقيع جدي(منصور).. كانت مقتضبة هي الأخرى، ووشت برفضه بما حدث:

- لا أفهم لماذا ارتضى الجد الأكبر تلك اللعنة التي سلطها البيت علينا.. ليته ارتضى الموت يومها على ألا نكون عبيدًا للبيت وشره..

لقد اختار جدي حياته وحياة أبنائه، فصار الثمن عشرات الحيوات الأخرى، التي صار لزامًا علينا أن نقدمها كل حين لسيد الظلام وتمثاله البغيض.. إنني أتمنى الموت في كل مرة أقدم فيها قربانًا جديدًا من أجل ذلك التمثال اللعين..

أعلم أن أبي قد فشل في حل اللعنة والميثاق.. وقد حاولت أنا الآخر كثيرًا، ولم أصل إلى طريق أسير فيه.. لقد استعنت بكل حيلة ولم أقدر.. فجلبت السحرة واستعنت بالأولياء والقساوسة لكن بلا جدوى..

أعلم أنني سأخبر ابني حين يحين الوقت بالأمر كما جرت الأمور، وسأطالبه ألا يغادر البيت.. لكنني سأطالبه كذلك أن يستكمل بحثه عن وسيلة ما للخلاص من تلك اللعنة، فربما نجح في ما أخفقنا في تنفيذه..

لا أعلم مغبة ذلك وهل سينتقم البيت لذلك أم لا.. لكني سأفعل وليرحمنا الله "

انتهت مذكراته، وفي النهاية وجدت مذكرات أبي الراحل.. يبدو أنه أعدّها قبل إصابته بالفالج، ولو انتظر لحين موته ربما لم تكن الفرصة لتواتيه على أن يتمها..

" لا أتفق مع أبي ولا مع جدي فيما كانا يفكران فيه بشأن البيت.. فأنا لا أرى أن البيت كان لعنة على الأسرة..بل أراه جاء منقذًا لها من الفناء.. فلولاه لانتهت ذرية طوسن بك الأرنؤوطي قبل قرنين من الزمان ولا كان هناك أحد منا..

إنهم يتحدثون عن الثمن الذي علينا أن ندفعه، وعن رفضهم للقرابين التي نقدمها للتمثال وسيد الظلام.. إنه ثمن ضئيل لما يقدمه البيت من مأوى وثراء وحماية وأشياء أخرى كثيرة.. ألا يستحق من يمنع عنا المرض والفقر أن نقدم التنازلات من أجله؟ ..

بالطبع يستحق..

لذا أحببت البيت حقًا وقررت وأنا أجدد الميثاق له أن أخدمه بصدق، وألا أتوانى في تقديم القرابين له.. رأيت كيف فاض الخير على البيت، وكيف عاش الأبناء في رغد وسعادة.. لكن زوجتي عكرت صفو هذه السعادة التي نحياها برفضها العيش بين جنباته.. حاول أبي معها وحاولت أنا الآخر، لكنها ركبت رأسها وأصرت على مغادرته، بل وقامت بإصطحاب أبنائي لمغادرة البيت..

إنني أعلم كيف ماتت ومن فعلها.. لقد كان البيت حتمًا.. ولقد حزنت كثيرًا عليها، لكن ولائي نحو البيت لم يتزحزح.. إنه قانون البيت الصارم وكانت هي من خالفته فكان عليه أن يحمي قاطنيه..

لكن شاكر هو الآخر حطم بعناده كل هذا.. لم يحب البيت ولا رغب في أن يعيش به.. بل إنه وفور أن أتم تعليمه غادره، مؤكِّدًا لي أنه رحيل بلا عودة.. تزوج بالقاهرة وأنجب بها وكان عمله بها كذلك.. حدثته مرارًا أن يعود للبيت، فهو وطنه الحقيقي، لكن لايبدو عليه أنه سيستجيب لما أدعوه به.. لم يكن يعلم ما فعله البيت من أجل أسرته.. ولم أكن لأخبره بأسرار البيت قبل أن يأذن لي سيد الظلام بهذا..

لكن سيد الظلام كان غاضبًا.. ورأيت هذا مرارًا حين راح يأتيني في منامي، وقد خشيت أن يلحق به أذى ما.. رجوته مرارًا أن يرجئ أمر شاكر للزمن، وأخبرته أنه حتمًا سيعود يومًا.. وكي

أطفئ غضبه رحت أغدق عليه بالقرابين البشرية أكثر مما فعلت من قبل.. بدا راضيًا لهذا لكنني لم أكف يومًا عن التفكير في مصير ابني وأحفادي من بعد مماتي، لو ظل شاكر على عناده ورفض العودة البيت..

رحت أفكر في جنون هل يفعلها سيد الظلام حينها ويؤذيه.. وبدأت أشعر بالإعياء والضعف والشيخوخة.. كان هذا يحدث لي لأول مرة، فلم يحدث أن مرضت يومًا تحت سقف هذا البيت.. شعرت أنها النهاية إذًا.. هنا رحت بجنون أستعيد محاولات أبي وجدي للتخلص من ميثاق البيت.. كان عليَّ أن أفعل هذا بسرعة قبل أن ينفِّذ سيد الظلام وعيده في ابني.. لكنني حتى الآن لم أعثر على شيء.. هنا فكرت في الحل الوحيد المتاح..

سأدمر البيت..

جلبت من أحد المحاجر كمية لابأس بها من الديناميت.. سأضعها في كل مكان بالبيت وسوف أشعلها معًا لتنفجر في وقت واحد.. ربما تهدم البيت حينها وزالت لعنته..

إنني أفعل هذا من أجل ابني.. أفعله ليس كراهية في البيت لكن كي لايصاب ابني بسوء بعد مماتي وقد شعرت به يدنو حثيثًا مني.. لا أعلم إن كنت سأنجح في ما أنتويه أم لا.. لكني سأفعل هذا اليوم.. ليرحمنى الله وليغفر لي مافعلته من قبل وليحفظ ابني وأحفادي "

وأنهيت المذكرات لاهثًا.. ووجدت نفسي أبكي أبي الراحل.. هل كل محاولاته الحثيثة لإعادتي للبيت كانت خشية عليَّ من نقمته.. وهل كان الشلل الذي أصيب به أبي هو انتقام البيت منه، لأنه أقدم على محاولة هدمه والتخلص منه.. لقد رغب في حمايتي للنهاية ولكني لم أكن أفكر إلا في نفسي فقط.. ليتني علمت

الحقيقة قبل ذلك.. ربما مكثت حينها في البيت معه وعاونته في البحث عن طريقة ما للتخلص من تلك اللعنة.

لقد أدركت الآن لماذا كان يرجونا أن نعيده للبيت.. هل كان يأمل ذلك المسكين أن يعالجه البيت كما حدث دومًا لأعوام كثيرة.. أم تراه تخيل أنه بقادر على إعادة الميثاق بينه وبين البيت مرة أخرى بطريقة ما..

-"لقد علمت الحقيقة ، وعلمت مافعلناه لأجدادك أيها الفانى.. والآن نطالبك بالوفاء بميثاقنا.. نطالبك بميثاق الدم".

وترددت تلك الكلمات من خلفي فجأة، فإلتفت بعنف..

كانت رأس التمثال الحجرى قد دار نحوى الآن ونيران شيطانية تشتعل بعينيه.. كان الصوت مفزعا مخيفا تمامًا كما كان بالحلم.. وشعرت بالرعب ممزوجا بغضب هائل مما حدث مع أبى.. ظللت ارمق التمثال بأنفاس ، وقلبي يخفق بقوة متصلبا في مكانى ، وظل هو ينظر الي بعينيه المشتعلتين، دون أن يبدو علية الملل..

إذا فكل ما ذكر في تلك المذكرات حقيقي، وها أنا أحدث سيد الظلام الخفي الرابض في تمثاله المخيف هذا.. في النهاية وجدت نفسي أهتف وأنا أبحث عن وسيلة ما للفرار من هذا الجحيم:

- أنا لم أصنع عهدًا مع أحد.. لست أنا من فعلت.

هنا ارتجت الجدران وبدت النيران تشتعل في أركان المكان غضبًا، وهبَّت لفحات حارة من الهواء في وجهي، كأنها قادمة من الجحيم، والتمثال يهتف بصوت غاضب يصم الآذان:

- بل فعلت أيها الإنسي لكنك تنسى.. إن ميثاق الدم يجري في الدماء وينتقل من الأباء للأحفاد للأبد، ولاينقضه إلا الموت والدم.

آلم الصوت المريع أذني فاغلقتهما بكفيّ، وانا أبحث بعيني المجهدة المرتعبة عن المخرج.. كنت ألتقط أنفاسي بالكاد.. لكن التمثال واصل بصوته المخيف:

- أيها البشري الذي عاهد ثم نسى.. الزم الميثاق وآتنا بالقرابين وارعَ البيت، أو تنال غضبنا الذي لا فرار منه.. آتنا بالقرابين تنل منا العطايا السخية.

تحركت مترنحًا، وأتجهت نحو الدرج الحجري كي أبتعد، ورحت أتسائل إن كان هذا الشيطان سيمعني من هروبي أم لا؟ .. أعلم أنني لن أقدِّم له القرابين، كما إنني لن ألزم نفسي بعهد وميثاق لم أفعله، حتى لو كان أجدادي قد قطعوه على أنفسهم..

لكن هل يقرأ هذا الشيطان أفكاري فينتقم مني هنا؟

وصلت للدرج وبدات أهبط البرج.. عاد التمثال ساكنًا مرة أخرى وانطفأت نيران عينيه.. وظللت أتخبط في جدران البرج حتى خرجت منه ووجدت نفسي أتهالك بجوار الجدار منهارًا..

كنت مرعوبًا وكنت غاضبًا ناقمًا.. وكان عليَّ أن أفعل شيئًا ما..

يجب أن تنتهي هذه اللعنة للأبد.

٢٦

سوف أحرق البيت

لقد قررت أن أنهي هذة اللعنة بهذا الحل.. إن النيران قاسية مدمرة، لايقوى على بأسها أحد.. ليأكل لهيبها البيت ولتلتهم معه لعنته وشياطينه.. لا أدري كيف لم يفكر أحد ما من قبل بحرق البيت.. بدا الحل سهلاً وممكنًا..

اشتعل الحماس بأعماقي لتنفيذ ما انتويت عليه ،ممتزجًا بنقمتي التي لم تهدأ.. لن أستكين لنداء هذا البيت بالعودة إليه وتقديم القرابين البشرية له مرة أخرى.. لن أحمل هذه اللعنة التي حملها أجدادي ثانية ولن أورّثها أبنائي أبدًا..

بحثت عن بعض الكيروسين أو أي شيء آخر يصلح للاشتعال في كل مكان بالبيت، لكني لم أجد شيئًا.. هنا تذكرت سيارتي بالخارج.. كانت ممتلئة بالبنزين لهذا جلبت أنبوبًا صغيرًا ووعاءً كبيرًا واتجهت إليها..

وضعت الأنبوب البلاستيكي بداخل خزان البنزين وحاولت امتصاص البنزين بفمي حتى شعرت بطعمع ورائحتة يملأن فمي، فوضعت طرف الأنبوب الآخر في الوعاء، فراح البنزين يتدفق ببطء نحو الوعاء حتى امتلا..

حملته واتجهت للبيت.. ورحت أنثر البنزين في كل أنحائه.. الستائر.. السجاد.. الأثاث.. المطبخ والحجرات..

صارت رائحة البنزين تملأ المكان قوية نفاذة ومنذرة.. وظللت أنثر البنزين حتى انتهى الوعاء..

هنا اتجهت نحو الخارج ووقفت قبالة باب البيت والتفت إليه مخرجًا عود ثقاب من جيبي ثم أشعلته وألقيته نحو بقعة من بقع البنزين كانت في بهو البيت..

واشتعلت النيران بسرعة رهيبة حتى إنني تراجعت مبتعدًا عن البيت كي لا تلفحني النيران بألسنتها.. وتحول المكان في لحظات لجحيم حقيقي.. وبدات النيران عزف مقطوعتها المجنونة، التي لن تكف إلا حين تحرز نصرها التام.

هل كنت أتوهم ما أراة وما أسمعه حينها.. لا أدري..

عشرات الصرخات المعذبة كانت تدوي في أذني من داخل البيت المشتعل.. ورايت الكثير من الخيالات والأشباح التي راحت تتراقص بين ألسنة اللهب..

كنت أقف بالحديقة أتابع بارتياح ألسنة اللهب، حين بدأت فجأة تخبو وتضمحل.. ارتجف قلبي حينها وقد همدت النيران تمامًا في لحظات.. وعاد السكون مرة أخرى ليظل المكان.

كنت أشعر بالرعب.. وأيقنت الآن لماذا فشل أجدادي في التخلص من البيت.. إنه قوي.. إنه أقوى منا جميعًا..

تقدمت بحذر للداخل لأرى ماذا حدث فاستقبلتنى ضحكة ساخرة راحت تتردد عشرات المرات في كل مكان حولي.. بدا البيت وكأنه يسخر مني..

تراجعت برعب وأنا أفكر في الفرار بسيارتي.. هرولت نحوها مذعورًا كفأر، فلم أدرِ كيف فتحت بابها، ولا كيف دخلتها، و لا كم عدد المرات التي فشلت في إدخال المفتاح فيها..

حاولت أن ادير المحرك لكنه لم يستجب.. كنت أحاول إشعال المحرك كالمجنون، وأنا أرى برعب عشرات الأشباح والشياطين تخرج من جدران البيت وواجهته متجة نحوي..

ورأيت بينهم العملاق الأسود..

وبرعب رحت أصرخ في السيارة أن تستجيب.. كنت أرى أبي وأجدادي بين الأشباح المتجة نحوى.. أخذت أضرب المقود في هلع وأنا احاول بلاجدوى أن أدير المحرك..

وأحاطوا بالسيارة حين بلغوها، ثم امتدت أياديهم نحوي مخترقة جدران السيارة المغلقة وأمسكوا بي..

وكان هذا أكثر مما أحتمل.. ففقدت الوعي..

أفقت لأجدني مصلوبًا أمام التمثال الذي صار يتوهج الآن بأكمله بلهب شيطاني.. وامتلا المكان بعشرات الشياطين التي راحت ترمقني بعيون مشتعلة بثبات وغضب، ورأيت جدي الأكبر طوسن ينحني أمامه ملوحًا بسكين غريب ويقول بصوت رخيم:

- لقد خاننا فاستحق أن يكون قربانًا لغضبك يامولاي..

انتهى من حديثه ثم التفت إليَّ بعيون جامدة واتجه نحوي، وصرخت في فزع وأنا أحاول الخلاص من قيودي التي تثبتني بالجدار بلا جدوى:

- إنه أنا ياجدي.. إنني حفيدك.. أنا شاكر.. أرجوك لاتؤذني.. لاتقتلتني ياجدي. لا تطع هذا الشيطان وتقتل ابنك!.

وتوقف أمامي، والسكين الغريب بيده، مرفوعًا لأعلى ونظرة غاضبة تشتعل في عينيه، وقال بصوت جامد:

- أخبرتك من قبل أنك لست مِنَّا.. لست منا يا شاكر!.

وهوت السكين بعدها نحو عنقي.

من مذكرات السيدة كوثر حلمي زوجة الأستاذ شاكر عبدالحميد:

إنه خط زوجي بالتأكيد.. أنا أكثر من يعلم هذا..

إنني لا أدري متى ولا كيف كتبه. . ولا كيف كتب الأسطر الأخيرة التي تخبرنا كيف قُتِل..

كان هذا جنونيًا تمامًا بطريقة تُذهِب بالعقل.. لكنه يحدث بالفعل.

كانت أيام طويلة قد مرت وقد كفَّ زوجي عن إجابة اتصالي به.. وفي نفس الوقت ازداد إضطراب ابنيّ وراحت صرخاتهما تعلو في نومهما منادية أباهم.. كانا يبكيان دومًا وحين ألمح دموعهما يكفكفان دموعهما على الفور ويهربان من نظراتي..

كنت أتساءل هل علما شيئًا لا أعلمه، أم أن مكروهًا ما قد أصاب أباهم وهم يشعرون بهذا؟

تحطمت أعصابي تمامًا ولم أعد بقادرة على النوم ثانية، فقررت أن أذهب للبيت بمفردي لأبحث عن زوجي.. وهناك وجدته مذبوحًا على فراشه دون قطرة دم واحدة..

قال الأطباء الشرعيون أنه قُتِلَ قبل أيام في مكان آخر، وأن جثته جلبت إلى فراشه بعد أن توقفت عن النزف.. كان بجسده حينها الكثير من الأوشام الغريبة التي لم تكن به من قبل.. كما كانت هناك فجوة ضخمة بصدره انتزع قلبه من خلالها..

كانت ميتة بشعة فانهرت لزمن طويل من جرائها وظلت الشرطة حينها تبحث طويلاً عن عملاق أسود زعم أحد اللصوص قبلها أنه هاجمه هو وزملاءه أثناء محاولة سطوهم على البيت من قبل، وأنه قد قتل أصحابه أمام عينيه..

وبعد شهور انتهى التحقيق دون أن نعلم من قتل زوجي، ولماذا فعل؟

لكنني كنت أعلم.. كنت بداخلي أعلم أن للبيت شأن فيما جرى..

وبعد عام أصر ابناي على العودة للبيت بشكل غريب.. صارا يتحدثان حديثًا عجيبًا عن نداء البيت وعن الميثاق الذي لايجب أن ينقض، فذكرني هذا بحديث جدهما الدائم لهما عن البيت، وتلك القصص العجيبة التي كان يقصها على آذانهما..

ظننت في البداية أن مسًّا ما قد أصابهما، إلا أن إصرارهما وإلحاحهما ظل في ازدياد حتى إنني لم أحتمل منهما المزيد من الضغط، وفي النهاية قررت أن أعود بهم للبيت مادامت تلك رغبتهم وليفعل الله مايشاء..

وعدنا للبيت فبدا مرحِّبا بنا للغاية، وبدا الأبناء في غاية السعادة.. لا أنكر أنني بدات أشعر بالراحة بين جنبات البيت ورحت أستمتع بالحديقة الرائعة التي لا أدري كيف تكون بمثل هذا التهذيب والنظام دون أن يرعاها أحد..

مرت الأعوام هادئة في البيت واستقرت حياتي مع أبنائي به، قبل أن أعثر على أوراق زوجي الراحل التي أُطلعكم عليها الآن..

كنت أنظف أسفل فراشي حين وجدتها تسقط من أسفله.. لا أدري أين كانت مخبوءة، وقد قمت بنفسي بتنظيف الفراش مرات كثيرة دون أن أعثر عليها من قبل..

قرأتها فتحققت كل هواجسي القديمة عن البيت.. لقد قتل البيت زوجي لأنه رفضه ورفض العيش به.. صرت فزعة خائفة أن يتكرر الأمر مع ابنيّ لو قررا فجأة أن يتركا البيت لسبب ما..

لكنني لا أعتقد أنهما قد يفعلا شيئًا كهذا.. لقد أحبا البيت حقًا ولا أعتقد أنهما يفكران في تركه أبدًا

إننـي لا أعلم حقًا إن كان صوابًا أن نظل في البيت بعد هذا الذي قرأته أم نتركه بأساطيره المخيفة.. لكن ما أعلمه أن ابنـيّ سوف يمكثان دائمًا بالبيت ولهذا فلن أغادره أنا الأخرى..

لقد تغير عبدالحميد الآن كثيرًا.. صار يبدو وكأنه صار سيدًا للبيت حقًا..

هل جدد الميثاق مع البيت ثانية؟

إنه لم يخبرنـي بالطبع..

لكننـي أعرف..